كسر التوقع اللغوي في المكونات الأسلوبية للنص القرآني

د. احمد جمال الدين احمد

جامعة قناة السويس/كلية الآداب

جامعة أم القرى/ تدريسي كلية اللغة العربية

المقدمة :

إذا كان القرآن الكريم كتاب هداية ودعوة إلى الله تعالى ، فإنَّ أسلوبَه يُعَدُّ وسيلةً من وسائلَ كثيرةٍ لتحقيق هذه الغاية ؛ حيث تحدى ، عز وجل ، فصحاءَ العرب في أن يأتوا "بسورة من مثله"فعجزوا ؛ لأنه كان خارجًا عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباينًا للمألوف من ترتيب خطابهم وله أسلوبٌ يختصُّ به ، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد"(١).

وهذا الأسلوب الذي هو مدار الإعجاز يثبت أنه ليس لبشرٍ القدرةُ على نسج مثيلٍ لبعضه مهما أوتي من فصاحة ، ومن ثم فإن هذا الأسلوب يمكن أن يكون وسيلةً تهدي إلى الله وتدعو إليه غيرَ المعاندين من المشركين والمكذبين لنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم .

الأسلوب بين التنظير العلمي والإعجاز القرآني :

أولاً – التنظير العلمي للأسلوب :

يُعَدُّ علم الأسلوب ابنًا طبيعيًا لتزاوج اللسانيات بالأدب وذلك منذ أن بشَّر بذلك (جاكبسون) في محاضرته الشهيرة عن (اللسانيات الإنشائية) سنة ١٩٦٠م التي ألقاها بجامعة أنديانا الأمريكية(٢).

وحين أصدر (تودورف) أعمال الشكليين الروس سنة ١٩٦٥ ازداد اللغويون والنقاد اقتناعًا بثراء البحوث الأسلوبية وبنتائجها الموضوعية .

ثم يؤكد الألماني (أولمان) استقرار الأسلوبية علمًا لسانيًا نقديًا "من أكثر أفنان اللسانيات صرامة ، على ما يعتري غائيات هذا العلم الوليد ومناهجه ومصطلحاته من تردد . وتنبأ (أولمان) بما سيكون للبحوث الأسلوبية من فضل على النقد الأدبى واللسانيات معًا"(٣).

ولا عجب في هذه المزاوجة بين الدرس اللغوي والدرس الأسلوبي ؛ فمنذ أن أنشأ اللغوي السويسرى المعروف (دوسيسير ت١٩١٣م) ثنائيته المشهورة اللغة (langue) والكلام (parole)(٤) ، وقد بدا جليًا أن هناك مستوًى آخر للدرس اللغوي يتجاوز معالجة اللغة المعيارية النمطية التي تستكنُّ في العقل الجمعي للجماعة اللغوية الواحدة ، إنه مستوى الكلام الذي ينصبغ بسمات من الفردية والخصوصية تكون كالبصمة للمتكلم أو المبدع أو الجنس الأدبي أو النص الأدبي نفسه .

وقد تعددت تعريفات الأسلوب تبعًا لهذا التوجه حتى بلغت ما لا يقل عن عشرين تعريفًا جماعها جميعًا سمة الفرادة والخصوصية ، ويمكن إجمال هذه التعريفات في اعتبارات خمسة :

الأول – اعتبار منشئ النص :

وأصحاب هذا الاعتبار يذهبون إلى أن الأسلوب هو اختيار(choice)(٥) منشئ النص أنماطًا لغوية خاصةً للتعبير عما يجول بفكره ، ويستشعره إحساسُه ، ويتسق ورؤيتَه للموقف أو الموضوع الذي يعالجه .

الثاني – اعتبار المتلقي :

ويهتم أصحاب هذا الاعتبار(٦)بالأثر الذي يحدثه النصُّ في المتلقي ، فالأسلوب عندهم هو القوة الضاغطة التي تتسلط على حساسية القارئ بواسطة إبراز بعض عناصر سلسلة الكلام ، وحمل القارئ على الانتباه إليها ، بحيث تمثِّل غفلتُه عنها تشوُّهًا للنص ، وإذا حللها وجد لها دلالاتٍ تمييزيةً خاصةً ، وعلى هذا يمكن تقريرُ أن الأسلوب **يبرز** والكلام يعبر .

الثالث – اعتبار العدول النصي عن المألوف :

وأصحاب هذا الاعتبار يعمدون إلى مقارنة معطىً لغويٍّ ، بالمألوف في لغة عصره أو في سائر النص ، فإن كان هناك عدول أو انحراف (deviation) عن المألوف كان هناك إجراءٌ أسلوبيٌّ ، وإن لم يكن هناك هذا العدول ، وُصفَ الكلام بأنه عادي (norm) .

فالأسلوب بهذا الاعتبار انتهاكٌ أو مجاوزةٌ (departure)بالقياس إلى المستوى العادي ، ومن ثم يمكن وصفه بأنه خطأ مراد على حد وصف (برونو)[٧].

فقولنا : "(كذبتُ القوم وقتلت الجماعة) ليس به أخاصية أسلوبية ، أما قوله تعالى : "فريقًا كذبتم وفريقًا تقتلون" فيحوي انزياحًا أو عدولاً عن النمط التركيبي الأصلي بتقديم المفعول به أولاً ، واختزال الضمير العائد عليه ثانيًا (فريقًا كذبتموه)"[٨].

الرابع – اعتبار ما يضاف إلى التعبير المحايد :

ويذهب أصحاب هذا الاعتبار[٩]إلى أن الأسلوبَ هو كلُّ إضافةٍ فنيةٍ تلحقُ أصلَ التعبيرِ أو ما أسموه التعبيرَ المحايدَ الخاليَ من السمات الأسلوبية ، ومن ثم ينبغي على الباحث تجريدُ التعبيرِ من سماته الأسلوبية ؛ للوصول إلى الأصل الأصيل للتعبير ، ذلك الأصلُ التعبيريُّ الذي يمثل لبَّ الفكرةِ ونواتهَا ، واعتبارُ كلِّ إضافةٍ فنيةٍ ، على هذا الأصلِ التعبيريِّ المعبرِ عن أصلِ الفكرةِ ، إنما هو من الزينةِ الفنيةِ المضافةِ إلى التعبيرِ الأصليِّ أو المحايد .

الخامس – اعتبار الموقف :

يذهب أصحابُ هذا الاعتبار[١٠]إلى القول بأن كلَّ تعبيرٍ ، محايدٍ أو فنيٍّ ، يتضمن قيمةً أسلوبيةً يستمدها من سياق الموقف الذي يحتويه ، وهذه القيمة تختلف باختلاف المواقف الحاوية للتعبير الواحد .

وبالنظر في هذه الاتجاهات نجد أنها متكاملةٌ غير متنافرة فالرسالة اللغوية تتألف من مرسل (منشئ النص أو المؤلف أو المتكلم) ومستقبل (متلقي النص أو القارئ أو المخاطب) والرسالة (النص أو الخطاب) ، والموقف (المقام أو سياق الموقف) .

وهذه الأمور الأربعة تتحكم في الأسلوب تحكمًا واضحًا ؛ فمن وجَّهَ اهتمامَه إلى منشئ النص رأى أن الأسلوب اختيارٌ منه للتعبير عن ذاته في الأساس أو رؤاه للأشياء من حوله ، ومن لاحظ الأثرَ الذي يلقيه الأسلوبُ على المتلقي ، ربطه ، وجودًا واستحسانا ، بما يحدثه من إثارةٍ لانتباه المتلقي وتأثيرًا في عقله ووجدانه ؛ بحيث يعْلَق هذا الأسلوب في عقل المتلقي ويؤثر في عواطفه فيقنعه بما يقصده من معانٍ .

ومن اهتم بالنص في ذاته بمعزِل عن المنشئ والمتلقي ، رأى الأسلوب عدولاً عن نمطٍ معياريٍّ ، الذي هو نفسه التعبير المحايد ، وأخيرًا فإن من اهتم بالمقام وأثره في الأسلوب رأى أن وسيلة تعريف الأسلوب هي الكشف عن المزاوجة بينه وبين السياق المقامي وبيان أثره في تشكيل الأسلوب .

ومع تكاملية هذه الاتجاهات الأسلوبية ، إلا أنني أري أن أهمها وأولاها بالعناية في الدرس اللساني الأسلوبي هو اتجاه المتلقي ؛ لأن الأسلوب إنما يستهدف قارئًا لولا إحساسُه بمقاصد المنشئ للنص لَما كان للإجراء الأسلوبي أيُّ فائدة ، ولولا ملاحظتُه ما في النص من عدولٍ أو أثر للمقام في النص لما رُصِدَت أيُّ فنيةٍ في النص ، والدليل على ذلك أن المجاز ، وهو شكل من أشكال العدول أو الانزياح عن نمط ، إذا ما شاع استعمالُه وابتُذِل على ألسن الناس أو في كتاباتهم ، تجاوزته مشاعر المتلقين فلم تتأثر به وأمَرَّتْه الأذهان فلم تتحرك له .

فالمتلقي هو **غايةُ** الإجراء الأسلوبي الذي ينشئه المبدع بوعي أو بغير وعي ، والتي يكون محلها النص بالضرورة ، وهو أيضًا **وسيلةُ** الكشف عن الإجراء الأسلوبي ، **والمعنيُّ** بتفسيره وهو ، من بعدُ ، **الحكَمُ** على أداء الإجراء الأسلوبي لوظيفته الفنية من حيث القدرة على التعبير عن مقصدية المبدع أو مناسبة المقام من عدمه .

ومادام المتلقي هو غايةُ الإجراء الأسلوبي وأداةُ استكشافِه وتفسيرِه فإن السؤال المطروح هو : كيف يستطيع النصُّ ومنشئُه التأثيرَ في المتلقي وإقناعَه بفنية الإجراء الأسلوبي وإجبارَه على الوقوف أمام ذلك الإجراءِ مفسرًا له ومحللًا ؟!

إنَّ آفةَ أيِّ نصٍّ أدبيٍّ الرتابةُ والملالةُ اللتان تدفعان القارئ إلى القراءةِ السطحيةِ للنص ، بل الإعراضِ والصدودِ عنه بالكلية ؛ لذا فالمبدع يحرص كلَّ الحرصِ على أن يكون نصُّه مُتَضَمِّنًا العديد من **المنبِّهات الأسلوبية** التي تعمل على لفت انتباه المتلقي وتجديد نشاطه الذهني .

ومن أبرز المنبهات الأسلوبية التي يستخدمها المبدع **كسرالتوقع** ، وهو إبراز بعض عناصر السلسة التعبيرية بما يخالف توقع القارئ(١١)، فيَمْثُلُ ذلك الكسر للتوقع بمثابة صدمةٍ تدفعه إلى تأمله والوقوف أمامه مفسرًا ومحللًا، ومن ثم يُحدِثُ ذلك الكسرُ تأثيرَه في المتلقي .

وهذا الكسر للمتوقع لا يُقصد به الكسر للمتوقع اللغوي العام الذي هو مجموعة القواعد والأصول التي ورثتها الجماعة اللغوية من خلال موروثها اللغوي ، لا يُقصد به هذا ألبتة ، وإنما يقصد به المتوقع في السياق الأسلوبي للنص نفسه ، بمعنى أن النص نفسه بمختلف مستوياته (الصوتية والصيغية والمعجمية والتركيبية والدلالية) هو الذي يَمُدُّ القارئ بالنموذج اللساني المعتمد لديه وهو نفسه أيضًا الذي يصدمه بكسر ذلك النموذج المعتمد والمتوقع لديه .

وقد دفع هذا التصوُّر أحد اللسانيين وهو (ميكائيل ريفاتير) إلى اعتماد مصطلح السياق الأسلوبي وعرَّفه بأنه :

"نموذج لساني مقطوع بواسطة عنصر غير متوقع ، والتناقض الناتج عن هذا التداخل هو المنبه الأسلوبي"(١٢).

وهذا المنبه الأسلوبي هو الذي يبرز بعض عناصر السلسلة التعبيرية ويفرضها على انتباه القارئ .

ثانيًا – كسر التوقع في النص القرآني :

إن التحليل الأسلوبي للنص القرآني ليس كالتحليل الأسلوبي لغيره من النصوص الأدبية ؛ لأن غيره من النصوص الأدبية تخضع للتقييم وبيان مدى توفيق صاحب النص في جعل نصِّه روحًا له ، في تعبيره عن أفكاره ومشاعره ورؤاه للمواقف والأشياء من حوله ، وتكون محصلةُ هذا التقييم الحكمَ بأن منشئَ النص قد وفِّق في هذا الموضوع أو لم يوفق .

وهنا يتجلى أولُ مظهرٍ من مظاهر علاقة النص بالمتلقي ؛ فنحن المتلقين للنص القرآني نوقن سلفًا أن النصَّ القرآني نصٌّ معجزٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، نؤمن بأن أسلوبه وكل إجراء أسلوبي تضمنه إنما وراءه حكمة تطلب ، ومن ثم لا مجال للحكم على أيٍّ من أساليبه بالتوفيق أو خلافه ، تعالى كتابنا عن كل ريب وتنزه قائله عن كل عيب .

قصارى ما يكون للمحلل الأسلوبي للنص القرآني بخاصة هو تحري مواطن الإجراءات الأسلوبية وفق رؤيته للأسلوب ، ثم بيانُ حكمة ذلك الإجراء الأسلوبي ؛ ليكون صنيعُ ذلك المحلل بمثابة دليلٍ على إعجاز أسلوب القرآن ، وبرهانٍ لغويّ على عبقرية أسلوبه يقيمان الحجة على غير المصدّقِ ويزداد به المصدِّقُ إيمانًا وتسليمًا .

ومن ثم "فإذا أورد الحكيمُ – تقدَّسَت أسماؤه – آيةً على لفظة مخصوصة ، ثم أعادها في موضع آخر من القرآن ، وقد **غيَّر لفظةً عما كانت عليه في الأولى** ، فلا بدَّ من حكمةٍ تُطْلَبُ ، فإن أدركتموها فقد ظفرتم ، وإن لم تدركوها فليس لأنه لا حكمةَ هناك ، بل جهلتم"(١٣).

وهذا الذي ذكره الخطيب الإسكافي ليشير عن كثب إلى المدخل الذي ارتأيناه في هذا البحث وهو مدخل النظر إلى كسر التوقع في النص القرآني بوصفه مدخلاً لإعجاز أسلوب القرآن .

وهذا الكسر للتوقع في أسلوب القرآن كما قررنا قبل قليل(١٤)لا نقصد به كسر المعيار اللغوي العام أو المشهور منه والبحث عن دلالات ذلك فيما اشتهر باسم العدول أو الانحراف أو الانزياح (deviation) عن معيار (norm) أو مجاوزته ومفارقته (deprature) ، وإنما نقصد به كسر المتوقع من خلال ما ورد في أسلوب القرآن نفسه ؛ فالنص القرآني كسائر النصوص "قادر على خلق معايير ظرفية خاصة به ، يُعَدُّ خرقها إجراءً أسلوبيًّا ذا مقصدية ، وهو بذلك يتجاوز المعيار التقليدي العام الذي يجعل الإجراء الأسلوبي هو الانزياح عن معيار اللغة العام"(١٥).

مظان كسر التوقع في النص القرآني :

بدايةً يجب تقرير أنه من البدهي ألا يُتصوَّر ملاحظةُ كسرٍ للتوقع بين نصين في عصرين مختلفين ، أو لمؤلفين مختلفين في موضوعين مختلفين ، أو حتى في موضوع واحد ؛ لأن لكل نصٍّ ظروفَه وحالتَه الخاصةَ التي تحكُمُ مؤلفَه ؛ ومن ثم فإنه من غير المنطقي أن أحكم على

النص اللاحق في القراءة بأنه كَسَرَ توقعًا أسلوبيًّا كوَّنه النصُّ السابق ، فهذا يُعَدُّ افتئاتًا على حرية كلِّ مبدع وتجاهلاً لطبيعة الزمان والمكان والظروف التي نشأ فيها كلُّ نص .

قُصَارَى ما يمكن أن يفعله اللساني هو المقارنةُ بين المكونات الأسلوبية للنصين وربطُ كلِّ أسلوبٍ بنصِّه وصاحبِه دون أن يجعلَ أسلوبَ أحدهما معيارًا يُعَدُّ الخروج عليه من قِبَل الآخر كسرًا للتوقع .

وعلى هذا فإنه إذا ما أراد المحلل اللساني أن يلاحظ كسرًا للتوقع فإن عليه أن يبحث عنه في إطار نصٍّ واحدٍ نُسِجَ نسجًا واحدًا بخيطٍ أسلوبيٍّ واحدٍ ، فإنه حينئذٍ يمكنه ملاحظةُ الخارجِ عن التوقع الأسلوبي ، الذي يستفز خبرته اللسانية ؛ لوصفه ابتداءً ، وبيانِ المستوى اللغوي الذي داخَلَهُ كسرُ التوقع ، ثم تفسيرِه وبيانِ مقصديته انتهاءً .

ولما كان القرآنُ الكريمُ بشتَّى سُوَرِهِ وآياتِه وجملِه ينسبك انسباكًا محكمًا يجعل بعضَه يأخذ بأعناق بعض ، فيبدو لقوة المناسبة بين سُوَرِهِ وآياتِه وجملِه ، كما لو كان ، عند التأمل ، كالجملة الواحدة بل كالكلمة الواحدة(١٦).

لما كان القرآن الكريم على هذا النسق الفريد من التماسك النصي ، نظر إليه العلماء قديمًا وحديثًا على أنه نصٌّ واحدٌ ، تهيمن عليه روحٌ أسلوبيةٌ فريدةٌ وواحدةٌ ، تسوّغُ **المقارنةَ** بين مكوناته الأسلوبية ، **وملاحظةَ كسر التوقع** فيما بين هذا المكونات ، من خلال المستويات اللغوية الصوتية والصيغية والمعجمية والتركيبية والدلالية .

وهذه المكونات الأسلوبية التي يُعْقَد بينها المقارنة ؛ بُغْيةَ كشفِ كسرِ التوقُّع ، تقع في مواضع محددة من النص القرآني هي : مواضع التكرارات الأسلوبية ، المتشابهات اللفظية ، التراكيب المتقاربة ، التراكيب المتتالية المتماسَّة ، التركيب الواحد .

(١) التكرار الأسلوبي :

تكرار الأسلوب القرآني على نمط أسلوبي معين والإلحاح عليه يُصَيِّرُ هذا النمط لدى القارئ جزءًا من مخزونه الذهني والوجداني المتوقع ، ومن ثم يعتمد مكوناته الأسلوبية بشكلٍ تلقائي ، وتكون المفاجأة حينئذٍ هي مغايرة هذا التوقع لديه وكسره .

فمثلاً على المستوى المعجمي اعتُمِد أسلوبيًا مفردة (الظلم) ومشتقاتها للتعبير عن مجاوزةِ الحق وتعدِّيه إلى الباطل .

فالشرك "ظلم عظيم"(الأنبياء١٣) ، "والكافرون هم الظالمون"(البقرة٢٥٤) ، ومن لا يتخذ مع الرسول سبيلاً يوصف بالظالم ، "ويوم يَعَضُّ الظالمُ على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا"(الفرقان : ٢٧) ، وتخبرنا الآيات بمصير القرى الظالمة ، "وكذلك أخذُ ربِّك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إنَّ أخذَه أليمٌ شديد"(هود : ١٠٢) ، "وكم قصمنا من قريةٍ كانت ظالمةً وأنشأنا بعدها قومًا آخرين"(الأنبياء :١١) ، "فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة..."(الحج : ٤٥) ، (وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ..." (الحج : ٤٨) .

... و هكذا يستخدم الأسلوب القرآني هذه المفردة المعجمية ، بشتى صيغها ، للتعبير عن معنى الجور ومجاوزة الحق وتعديه إلى الباطل ، وعلى هذا فحين يأتي التعبير القرآني ليصف قسمة المشركين الولد بينهم وبين الله تعالى بجعلهم الذكرَ الذي يرضونه لهم ، والأنثى ، التي لا يرضونها لأنفسهم ، لله ... حين يصف التعبير القرآني تلك القسمة بأنها (ضيزى) في قوله تعالى "ألكم الذكرُ وله الأنثى تلك إذًا قسمةٌ ضيزى"(النجم ٢١،٢٢) ، فإن ذلك يعد كسرًا للتوقع ، نشأ عن خروج الأسلوب القرآني عن المكون المعجمي الذي تكرر وألحَّ على استعماله النص القرآني للتعبير عن معنى مجاوزة الحق ، مما يجعله منبهًا أسلوبيًا يستوجب التفسير والمناقشة .

والتفسير فيما نرى ، والله أعلم ، يتمثل في أن التعبير القرآني أراد أن يلفت أنظار المتلقين إلى هذا الموضوع خاصة ؛ لأنه يشير إلى ما عليه هؤلاء المشركون من فسادِ عقلٍ واضطرابِ منطقٍ وتناقضٍ فجٍّ كفيلٍ بأن يُسقطَهم من أنظار أتباعهم ويُسخِّفَهم أمام أعدائهم من المؤمنين ؛ فآلة تلقي العلم ومن ثم الاعتقاد لديهم ، وهي العقل ، خربةٌ فاسدة ؛ فهؤلاء قومٌ نسبوا إلى الله الولد ، وهذا أمرٌ غريب في ذاته ، ولكنهم لم يكتفوا بذلك بل جعلوا لله ، من الولد ، الإناث – تلك التي يمقتونها إلى حد الوأد – وجعلوا لأنفسهم الذكورَ المفضلةَ لديهم ، وهم في الوقت نفسِه يقولون إنهم يعبدون هذه الإناث (وهي عندهم الملائكة والأصنام)؛ ليكونوا شفعاء لهم عند الله(١٧).

وهذه القوه الضاغطة على المتلقي المتمثلة في هذا الكسر للمتوقع تنبع أهميتها من أنها تُفقد ثقة المشركين في منطقهم ، وتُضعف حجةَ أتباعِهم في نصرتهم ، ومن ثم تهدم قضية الشرك من الأساس .

هذا فضلاً عن غرابة الكلمة (ضيزى) ، مقارنةً بما شاع استعماله في الأسلوبي القرآني (ظالمة) ، وهي بتلك الغرابة اللفظية تعبر عن غرابة هذه القسمة ، فضلاً عن مراعاتها لفواصل سورة النجم وما تحققه من إيقاع كامنٍ في صوت الألف المقصورة.

(٢) المتشابه اللفظي :

ويقصد به ورود تركيبين أو أكثر يتطابقان لفظًا إلا في موضع بعينه كالاختلاف بالزيادة أو النقصان ، فمثلاً الأسلوب القرآني المستخدم للتعبير عن السؤال والجواب تكرر في أكثرَ من موضعٍ بهذه الطريقة :

"ويسألونك عن اليتامى ، قل : إصلاح لهم خير" (البقرة٢٢٠) .

"ويسألونك عن المحيض ، قل : هو أذى" (البقرة ٢٢٢) .

"يسألونك عن الروح ، قل : الروح من أمر ربي" (الإسراء ٨٥) .

"ويسألونك عن ذي القرنين ، قل : سأتلو عليكم منه ذكرًا" (الكهف ٨٣) .

حيث يلاحظ أن الجواب المصدر بـ (قل) ورد خاليًا من الفاء ، فصار هذا هو المكوّنَ الأسلوبيَّ المعْتَمَدَ في مثل هذه الأساليب .

وعندما يرد قوله تعالى من سورة طه (ويسألونك عن الجبال ، فقل : ينسفها ربي نسفًا) (طه ١٠٥) وقد اقترنت لفظة (قل) بالفاء فإنه ، بلا شك ، سيشكِّل كسرًا لتوقع القارئ ، يستثير انتباهه ويدفعه إلى التساؤل عن المقصدية والتفسير .

ويحاول الزركشي في برهانه تقديم تفسيرٍ لهذا الأسلوب فيقول : "الأجوبة في الجميع كانت بعد السؤال ، وفي طه كانت قبل السؤال ، وكأنه قيل :إن سئلت عن الجواب فقل"[١٨].

وأرى أنه يمكن تقديمُ تفسيرٍ آخر وهو أن كل جواب في الآيات الأربع الأولى يتسم بالوجود الممتد ، فالإصلاح لليتامى ممتد ، أو هكذا ينبغي أن يكون مادام اليتامى موجودين ، والأذى ممتد مادام المحيضُ موجودًا ، والروح سرها وبقاؤها ممتد بأمر الله ، فإذا أراد لها الفناء أو انكشاف سرها فإن ذلك سيكون بأمره كذلك ، وتلاوة ذكر ذي القرنين ممتد في زمن الحكي والاعتبار به ممتد في الزمان كذلك .

أما نسف الجبال فمع أنه أمر لم يقع بعد إلا أنه في يقين كل مؤمن واقعٌ ، لا شك في ذلك ، ووقوعه لن يكون له امتداد في الزمان ، وإنما سيكون بمقدار قدرة (كن) ، في لمحة طرف سينسفها ربي ، فناسب هذه السرعة في الحدث ، ويقينية المخاطَب ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم ومن ورائه المؤمنون ، في تحقق ذلك النسف للجبال في لمحة طرف ... ناسب هذه السرعةَ في نسف الجبال واليقين في ذلك ، مع أنه لم يحدث بعد ، دخولُ فاء التعقيب والسرعة على الجواب (قل) ، وكأن المعنى _ والله أعلم _ قل يا محمد بلا تردُّد ولا تريُّب ستُنْسفُ في لمحةِ طرفٍ لا محالة .

أما الأمور الأخرى فإنها لا تتطلب الجواب بسرعة ؛ لأنها أمور لا يتعلق بها تردُّد أو تريُّب ، فهي أمورٌ يقينيةٌ واقعةٌ في الحياةِ يلمَسُ صدقَها الخلقُ بالخبرةِ والعلم ؛ فما من عاقلٍ إلا ويعلم أهمية الإصلاح لليتامى والعقل يقول : إن كل إنسان معرَّضٌ أن يكون يتيمًا أو يكون له يتامى . وما من عاقلٍ ذي فطرة سليمة إلا ويعرف أذى المحيض وقد عرفت ذلك البشرية بالفطرة السليمة و العلم اليقيني معًا . ومَن مِن الخلق لا يدرك أن أمر الروح بيد الله لا غيره ؟ وتلاوة ذكر ذي القرنين من الأمور التي لا تتطلب سرعة الجواب فيها كذلك ، فهي أمور الجواب عنها يكون على السَّعَة ولا مجال للشك في مصداقيتها ؛ لأنها معلومة بالمشاهدة أو الحكاية .

وينبغي علينا أن ننتبه إلى أمرين في وقوع كسر التوقع في المتشابه اللفظي ، **أولها** – أن كسر التوقع ، ما لم يكن من التكرار الأسلوبي ، فإنه غالبًا ما يأتي في التراكيب المتأخرة لا في التراكيب المتقدمة ؛ حتى نضمنَ تكوُّنَ النموذج الذي يتوقع من خلاله القارئ ورود التركيب على شاكلة أسلوبية معينة ، والتي يكون الخروج عنها كسرًا للتوقع ، وهذا يقود إلى ضرورة الاعتداد بترتيب السور في المصحف والذي هو توقيفي من عند الله(١٩)، وهذا يتسق مع نظرتنا للقرآن

الكريم بوصفه نصًّا واحدًا ، ومن ثم يُعامل معاملةَ أيّ نصٍّ يُراد متابعةُ مسلكه الأسلوبي ، فكما أنه لا يمكن متابعةُ المسلكِ الأسلوبيّ لأيّ نصٍّ إلا بقراءته مرتَّبًا وفق الترتيب الذي أراده له منشئُه ، كذلك النص القرآني إذا أريد قراءته أسلوبيًا[٢٠]لمتابعة كسر التوقع في أسلوبه .

ثاني الأمور التي ينبغي التنبيهُ إليها أثناء دراسة كسر التوقع في المتشابه اللفظي – هو عدم اشتراط تكرار المتشابهات المكوّنة للنموذج الأسلوبي المعتمد والذي يُبرز التوقعَ في ذهن المتلقي ، وذلك مع أهمية هذا التكرار الأسلوبي ؛ وذلك لأن هناك وسائل يمكن أن تكون بديلةً عن هذا التكرار في لفت نظر القارئ إلى تكوينِ التوقع ابتداءً وكسرهِ انتهاءً ، مثل جريان المتشابه اللفظي بين المتكلم والمخاطب أنفسهما في موضعين مختلفين دون تطابق كما في قوله تعالى : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون" (التوبة٥٥) .وفي السورة نفسها "ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون"(التوبة٨٥) .

فمع أن الآية الأولى لم تتكرر تكررًا يتولدُ معه اعتمادُه نموذجًا يتحقق به التوقع الأسلوبي المنشود ، إلا أن ورود الآيتين من مخاطِبٍ واحد ولمخاطَبٍ واحد وفي موضعين متقاربين من سورة واحدة ، يبرز التساؤل عن التكرار أولاً ثم عن السرِ وراء خروج الآية الثانية عن أسلوب الأولى والانتقال من (فلا تعجبك) إلى (ولا تعجبك) ومن (أموالهم ولا أولادهم) إلى (أموالهم و أولادهم) ومن (ليعذبهم) إلى (أن يعذبهم) ومن(الحياة الدنيا) إلى (الدنيا)[٢١].

فالآية الأولى المتكلِّم هو الله تعالى والمخاطب هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكذلك في الآية الثانية ، وهذه الوحدة في المتكلم والمخاطب تبرز فكرة كسر التوقع ، الذي يُحدث لفتَ الانتباه للقارئ أيًّا كان تفسيرُه لهذا الاختلاف الأسلوبي .

ومما يستعاض أيضًا عن التكرار الأسلوبي المكوّن للأسلوب المتوقع في المتشابه اللفظي وحدة المخاطب والسياق دون المتكلم كما في قوله تعالى حاكيًا عن نوح عليه السلام :"أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم" (الأعراف٦٢) . وقوله تعالى حاكيًا عن هود عليه السلام : (أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين" (الأعراف٦٨) .

فالآيتان في مقام الدعوة وخطاب المشركين ، وجَرَيَا على لسان نبيين وبينهما تشابهٌ لفظي ، كما نرى ، يجعلنا نتساءل ما سرُّ عدم التطابق رغم كونهما في مقام واحد ولمخاطبين بنفس الحال من الكفر والشطط والعناد مع أنبيائهم ؟!!

وهذا التساؤل ينبئ عن كسرٍ للتوقع يهدِف في الأساس إلى لفت انتباه القارئ ثم البحث عن تفسير له[٢٢].

ومن كسر التوقع مع اتحاد المخاطب والسياق قوله تعالى عن نفسه مخاطبًا إبراهيم عليه السلام : "فبشرناه بغلامٍ حليم" (الصافات١٠١) ، وقوله تعالى عن الملائكة مخاطبين إبراهيم عليه السلام "و بشروه بغلامٍ عليم" (الذاريات : ٢٨) .

هذا الكسر الذي تمثل في اختلاف الوصف (حليم وعليم) مع كونِ المخاطب هو إبراهيم عليه السلام وكونِ المقامِ مقامَ بشارة بولد. يسترعي انتباه القارئ للنص القرآني ويستثيره لمعرفة السرِّ وراء هذا الاختلاف في المكون الأسلوبي بين الآيتين[٢٣].

قبل أن نختم حديثنا عن كسر التوقع من خلال المتشابه اللفظي تجدُرُ الإشارةُ إلى ملاحظة مهمة وهي أنه كلما اقتربت الآيات المتشابهة لفظيًا كان شعورُ المتلقي بكسر التوقع أكبرَ ، وكلما ابتعدت الآيات المتشابهة كان شعورُه أقلَّ مما يستلزم منه طاقةً تركيزيةً وقراءةً واعيةً تمكِّنُه من ملاحظة كسر التوقع .

(٣) التراكيب المتقاربة :

التقارب بين التراكيب له أثرٌ كبيرٌ في إبراز كسر التوقع أمام القارئ وقد أشرنا قبل قليل إلى شيءٍ من هذا ، إلا أننا نشير هنا إلى ما كان في غير المتشابه اللفظي .

والمقصود بالتقارب على مستوى النص القرآني ما كان في السورة الواحدة ، التي تُعَدُّ وحدةَ بناءِ النصِ القرآنيِّ كلِّه ، وكلما كانت التراكيبُ المتقاربةُ ، بداخل السورة الواحدة ، أقربَ كان شعورُ المتلقي بكسرِ التوقعِ أكبرَ .

فمثلاً في قوله تعالى من سورة التوبة : "الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله و أولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم" (التوبة٢٠،٢١) ، أتى التعبير القرآني بلفظ (يبشرهم) موافقًا لأصل معناه اللغوي وهو أنه لا يكون إلا في الخير[٢٤]، وهذا متوقع وواضح في الآيتين السابقتين ؛ فأيُّ خير أسمى مما بشَّر به الله عباده الصالحين من الرحمة والرضوان والجنات ؟!

ولكن في السورة نفسها وردت لفظة البشارة على غير المتوقع ؛ حيث أتت خارجةً عمَّا ذُكِر في السورة نفسها من البشارة بالخير ؛ ففي الآية (٣٤) يقول تعالى :"والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشِّرهم بعذاب أليم".

فورودُ البشارة بمعنًى – هو نفسه المعنى اللغوي[٢٥]– ثم خروجُه عن هذا المعنى إلى معنًى آخر في السورة نفسها كسرٌ لتوقع القارئ لما لاحظه من أسلوب القرآن وكان يتوقع اطرادَه .

(٤) التراكيب المتتالية المتماسَّة أو بداخل التركيب الواحد :

ذكرنا في النقطة السابقة أنه كلما كانت الجملُ أقربَ فيما بينها كان الشعورُ بكسر التوقع أكبرَ ، وفي هذه النقطة تتقارب مكونات الأسلوب التي دخلها كسر التوقع حتى تصبح متتاليةً في تركيبين متماسين ، أو بداخل تركيب واحد طويل بالعطف ، أو المكملات ونحوها ، أو قصير بحيث تتضح المغايرة بين المكونات الأسلوبية .

وهذا الموضع من مظانّ كسر التوقع الأسلوبي يكون من أكثر المواضع لفتًا لنظر القارئ وعمقًا في شعوره وتأثيرًا عليه ، ومن أمثلتها على مستوى التراكيب المتتالية حتى التماس قوله تعالى : (... قالوا : إنا معكم إنما نحن **مستهزئون** . الله **يستهزئ** بهم ..."(البقرة ١٤، ١٥) .

فوقوع (يستهزئ) بعد (مستهزئون) فيه كسر للتوقع حيث كان يتوقع أن يشتمل النسق الأسلوبي على المكونات الأسلوبية نفسها ، ولاسيما في ظل هذا التقارب حتى التماس بين التركيب الأول والتركيب الثاني ، وعلى هذا كان يتوقع أن تكون السلسلة الكلامية كالآتي :

(... إنما نحن مستهزئون الله مستهزئ بهم) .

ولكن حدث كسر لهذا التوقع الذي لا محالة سيلفت نظر القارئ الواعي الخبير ويسترعي انتباهه .

ومثالها في التركيب الواحد قوله تعالى : فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا) (الكهف ٩٧) .فوقوع المغايرة في الصيغة بين الكلمتين (اسطاعوا) و (استطاعوا) فيه كسر لتوقع القارئ لكلمتين في تركيب واحد ، يلفت نظره ويسترعي انتباهه ويحرك غريزة التساؤل والبحث عن تفسير لهذه المغايرة في المكونات الأسلوبية للجملة الواحدة .

ومن الواضح أن العطف هنا جعل الصيغتين تقعان في تركيب واحد ، وليس في تركيبين متتاليين متماسين كالمثال السابق عليه .

تلك هي مواضع كسر التوقع في المكونات الأسلوبية للنص القرآني . ويلاحظ أن لفت نظر القارئ ، والقارئ الواعي تحديدًا ، هو المعيار الذي يدل تحققه على إحداث كسر التوقع لأثره المنشود ، ألا وهو تأمل القارئ في موضع الكسر ؛ بحثًا عن المقاصد الفنية وراءه .

وعلى هذا فإنه كلما كان لفتُ نظر القارئ واسترعاءُ انتباهه أكبرَ دلَّ ذلك على كون كسر التوقع أوضحَ وأكثرَ تأثيرًا من غيره .

وبوجه عام فإن أهم المظان التي يتجلى فيها كسر التوقع هو التكرار لمكونات أسلوبية معينة والإلحاح عليها في النص حتى يعتادها القارئ وتصير له بمثابة اللازمة الأسلوبية المعتمدة التي يسهل توقعها في سائر النص ، ويكون الخروج عليها بمثابة الصدمة للقارئ نتيجة كسر توقعه الأسلوبي .

إلا أن النص قد يستعيض عن غياب التكرار الأسلوبي بوسائل أخرى بديلةٍ يتجلى بها توقع الأسلوب وانكساره في ذات الوقت ، مثل تقارب أو توالى وتماس المكونات الأسلوبية المتغايرة ، على مستوى المكان في النص ، أو تقاربها من حيث الشبه على مستوى اللفظ فيما يسمى بالمتشابه اللفظي.

كسر التوقع في المستويات اللغوية :

لم يخل النص القرآني في أيٍّ من مستوياته اللغوية (الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية والدلالية) من كسرٍ لتوقع القارئ ، وكان لكل كسرٍ مقصديتُه المرتبطة بالسياق ، في غالب الأمر ، ولكن مع اختلاف هذه المقاصد تتفق جميعها في إحداث صدمة للمتلقي تسترعي انتباهه وتحول بينه وبين الوقوع في الرتابة التي تتسم بها الأساليب ذات السلاسل الكلامية المسايرة للتوقع في عناصرها اللغوية المختلفة . وسوف نكشف فيما يلي عما وقع في بعض النماذج القرآنية من كسر للتوقع محاولين تقديم التفسير الفني لها .

أولاً – كسر التوقع على المستوى الصوتي :

إن أصل التلقي للنص القرآني هو السماع ؛ فالقرآن تُلُقِّيَ مشافهةً وتناقله الصحابة عن النبي صلي الله عليه ويلم سماعًا ؛ وحُفِظ في صدورهم قبل أن يُحْفَظ مكتوبًا .

لذا فإن الأصل في العلاقة بين النص القرآني والمتلقي عبر العصور هي علاقة أساسها الصوت لا الخط ، ومن ثم نجد النص القرآني ، بإعجازه الفني ، قد استثمر هذه الخاصة القرآنية ، فوقعت في ثناياه صورٌ من كسر التوقع الصوتي الذي يوظَّف في تحقيق دلالاتٍ فنية تدلل وتبرهن على الإعجاز القرآني .

وقد تعددت صور هذا الكسر للتوقع على المستوى الصوتي ما بين كسرٍ على مستوى الصوت الصامت ، وكسرٍ على المستوى الصوت الصائت .

ولنضرب مثلاً على ما وقع من كسر للتوقع في الصوت الصامت بسورة الانفطار التي بدأت من الآية التاسعة في عرض إيقاع ذي رنين مميز يستحوذ وقعُه على الأسماع فتَشْدَهُ به النفوس وتلَذُّهُ وتنجذب إليه .

"... كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨)".

إن هذا الإيقاع الذي يتضافر على تحقيقه صوتُ النون فاصلةً وشبيهُه صوتُ الميم ، مسبوقين بالمد ، الواو والياء متعاقبين ، والتكرار في كلمة (الدين) أربع مرات ، وتركيب (ما أدراك ما يوم الدين) مرتين ...

إن هذا الإيقاع الأخَّاذ الذي يرتبط به المتلقي ويعتمده سمعيًا ينكسر في الآية التالية مباشرة لهذه الآيات ، وهي الآية الختامية للسورة "يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)" .

وكان بالإمكان مثلاً أن يُستخدَم لفظٌ آخرُ مكانَ لفظ الجلالة (الله) ، يعبر عنه ويحافظ على الفاصلة ، كأن يقالَ مثلاً (والأمر يومئذ لرب العالمين) ، ولكن الإعجاز القرآني يأبى ذلك ويؤثر كسر الفاصلة المتوقعة ؛ فختمت الآية بإيقاع مغايرٍ لما ألحت عليه الآيات السابقة ، إنه إيقاع الهاء الذي ينقطع النفس عنده تمامًا ؛ حيث إنه صوت مهموس لا يتذبذب فيه الوتران الصوتيان حال النطق به كما هو الحال عند التنفس العادي تمامًا بتمام .

وهذا الإيقاع المغاير والمتفرد لما عليه الإيقاعات السابقة ، فضلاً عما يُحدِثُه من كسرٍ للتوقع الصوتي الذي اعتمدته السورة وما يحدثه من مفاجأةٍ تعمل على تنشيط ذهن المتلقي ، يبعث على التساؤل عن مقصديته الفنية ...

وإن البحث ليرى ، انطلاقًا من الطبيعة الصوتية للهاء التي هي جريان الهواء عَبر مجراه من أعماق الجهاز النطقي (الرئتين) لا يعترضه ما يَثْنيه أو يقطعُه وانطلاقًا من وصفها كذلك بالخفاء والضعف[٢٦].

أقول : إن البحث ليرى من خلال هذه الطبيعة الصوتية للهاء أنها توحي بالتناهي والتسليم إلى الله تعالى ؛ فبعد أن عرضت الآيات من الآية التاسعة حتى الآية الثامنة عشر من السورة تكذيب المكذبين بالدين وعدم انثنائهم عن هذا التكذيب واستمرارهم في غيِّهم ، رغم إخبارهم بأن عليهم ملائكةً ترقبهم يعلمون ما يفعلون ، ورغم إخبارهم بأن الأبرار مصيرهم النعيم وأن الفجار ، الذين هم منهم ، مصيرهم الجحيم ... رغم هذا كلِّه ورغم إمهال الله لهم دون أن يقطعهم عن غيِّهم بأخذهم أخذ عزيز مقتدر ... رغم كل هذا فإن أمرهم متناهٍ إلى الله صائرٌ إليه ، لا محالة ، لن يثنيهم عن المصير إليه سبحانه شيءٌ ولن يقطعَه عن العَرْض عليه عارضٌ .

إن معنى انتهاء الأمر لله والتسليم بذلك من جهة ، وهذا الضعف والخفاء الذي يؤول إليه البشرُ ، كلُّ البشر ، يوم الدين من جهة أخرى ... إن هذا المعنى وذاك لمن الإيحاءات الفنية التي تتسق وطبيعة صوت الهاء الذي ختمت به آيات سورة الانفطار والذي تحقق به كسر الإيقاع الصوتي فيما يسبقها من فواصل على حد ما بينا .

وقد تحقق مثلُ هذا الكسر أيضًا في فواصل سورة الضحى ، وذلك في موضعين حيث سارت الفواصل من بداية السورة حتى الآية الثامنة على صوت الألف الممدودة :"وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآَوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨)".

ثم انكسر توقع القارئ ، وانتقلت الفاصلة إلى صوت الراء "فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠)".

هذا هو موضع كسر التوقع الأول ، أما الموضع الثاني ففي الانتقالِ من فاصلة الراء ، وخَتْمِ السورة بفاصلة الثاء ، "وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ".

أما الكسر الأول ، الانتقال من صوت الألف الممدودة إلى صوت الراء ، فيهدف ، فضلاً عن استرعاء انتباه المتلقي وتحقيق عنصر المفاجأة الصوتية ، إلى التركيز على طبيعة الأوامر التي تعبر عنها الآيات ذات الفاصلة الرائية ؛ وصوت الراء كما هو معلوم صوتٌ مجهورٌ مكرَّرٌ[٢٧]، وصفتا الجهر والتكرير تناسبان معنى الأمر الوارد في الآيتين :(فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر) ؛ فالجهر من صفات القوة ، والتكرير من صفات التوكيد . ويبرز أثر صوت الراء في الآيتين السابقتين بعد فاصله الألف المدية في (الضحى ... سجى ... قلى ... وهكذا) ، والألف المدية صوتٌ هوائيٌّ خفيٌّ ضعيفٌ من أخف الحروف[٢٨].

وهذه الصفات تعبر عن معنى الرقة والليونة التي يخاطب بها ربُّ العزة رسوله مُسَرّيًا عنه ومطمئنًا له ، بعد ما أصابه من حزنٍ وألم بسبب انقطاع الوحي عنه صلى الله عليه وسلم .

أما الموضع الثاني الذي برز فيه كسر التوقع في سورة الضحى فهو في الانتقال من صوت الراء إلى صوت الثاء في قوله تعالى : "وأما بنعمة ربك فحدث" ؛ وهذا الكسر في الآية يفاجئ المتلقي

؛ نظرًا لتشابهها مع الآيتين السابقتين ؛ إذ جميعها يحمل أمرًا موجهًا للرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان المتوقع أن تكون الآية مثلاً : (وأما بنعمة ربك فخبِّر أو فاجهَر) ، حتى تتوافق الفواصل مع التوقع .

ولكن هذا الكسر قَصَدَهُ الإعجازُ الأسلوبيُّ للتركيز على خصوصية هذا الأمر الأخير ، الأمر بالتحديث عن النعمة ، وأن شكل التحديث عن النعمة ينبغي أن يكون بهيئة مخصوصة ، هي هيئة الهمس والهدوء والتواضع ، لا هيئة التباهي والتعالي والتكرار الذي يحمل كبر المتغطرسين من ذوي النعم ، وربما أسهم في هذه المعاني صوت الثاء في (فحدث) بما فيه من همس وطراوة يُشعر بصفات الرقة والليونة(٢٩) والدفء وخفض الجناح الذي ينبغي أن يتحلى بها المعلنُ نعمته على الناس .

إن هذا الكسر جيء به لغاية هي لفت الانتباه إلى ما في صوت الثاء من إيحاءات تناسب ما ينبغي أن يكون عليه الحديث عن النعمة .

ولم يقع كسر التوقع في إطار الأصوات الصامتة فحسب وإنما وقع في الأصوات الصائتة أيضًا ، متمثلةً في الخروج عن المتوقع في الحركات .

فمن المعلوم أن الأصل في حركة هاء الغيبة أن تكون مضمومة لأنها مقتطعة من (هو)(٣٠) ، إلا أن تسبق بكسر أو ياء ؛ فإنها حينئذٍ تكسر منعًا للثقل وطلبًا للخفة ، وقد اعتمد الأسلوب القرآني هذا الأصل في النص القرآني من أوله لآخره ، حسب قراءة حفص . إلا في موضعين ضُمَّتْ فيهما الهاء بعد ياء ، مما يمثِّل كسرًا للمتوقع في هذا المكون الأسلوبي للنص القرآني .

هذان الموضعان هما :

قوله تعالى في الآية الرابعة والستين من سورة الكهف :"وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ".

وقوله تعالى في الآية العاشرة من سورة الفتح :"وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا".

وهذا الخروج عن المتوقع يشير بوضوح إلى الإعجاز الأسلوبي الصوتي في هذه القراءة من حيث مراعاة المقامات ، ومحاكاة الأصوات للمواقف ، فآية سورة الكهف تحكي ما كان من فتى موسي عليه السلام ، من نسيانه أن يذكر لموسى ما رأى من حياة الحوت ووقوعه في البحر واستمرار نسيانه حتى جاوزا مكان وقوعه عند الصخرة ، مع أن هذا الأمر ما كان له أن يُنْسَى ؛ لكونه أمارةً لهما على الطِلْبة التي تناهضا من أجلها ، ألا وهي لقاء العبد الصالح الذي تهفو أنفسهما إلى لقائه ؛ فضلاً عن كون هذا النسيان غيرَ متوقَّعٍ من فتى موسى ؛ إذ كيف ينسى أن يحكي لموسى عليه السلام معجزتين بيِّنتين اقترنتا بوقوع الحوت عند الصخرة .

الأولى : حياة السمكة المملوحة المأكول منها ، والثانية : قيام الماء وانتصابه مثل الطاق ونفوذها في مثل السرب (الطريق المفتوح) منه إلى البحر ؟!!

كيف ينسى إخبار موسى بذلك ؟!، ثم كيف ينسى ذلك حتى خلَّفا موعد لقاء العبد الصالح وسارا مسيرة ليلة إلى ظهر الغدو حتى طلب موسى عليه السلام الحوت[٣١] ؟!!

إن أمر هذا النسيان المستغرب غير المتوقع أوقع حسرةً ثقيلةً في نفس فتى موسى التي شعرت ببشاعته ؛ لما ترتب عليه من تفويت لقاء العبد الصالح ، ولعدم وجود مسوّغٍ له في ظل ما اقترن بلحظة وقوع الحوت من معجزات .

وأرى أن استعمال الضمة بعد الياء في (ما أنسانيهُ) بما تحمله من ثقل وغرائبية في الخروج عن المألوف الصوتي يحاكى هذا السياق المشحون بثقل الحزن الذي أصاب الفتى ، وغرائبية ما ألمَّ به من نسيانٍ في غير موضعه ومن دون مسوّغٍ له .

أما الموضع الثاني من كسر التوقع بضم (الهاء) بعد (ياء) في قوله تعالى : (ومن أوفى بما عاهد عليهُ الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا) فوراءه محاكاةٌ للموقف ومراعاةٌ للمقام ؛ حيث تُعَلِّقُ الآيةُ الكريمةُ على ما وَقَعَ بين النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، والصحابةِ من عهدٍ في عام الحديبية ؛ حيث بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت وعلى ألا يفروا عند اللقاء ، وقد عظَّم الله شأن هذه المبايعة بأن جعلها بمنزلة المبايعة له _ جلَّ شأنه _ وأن الذين يضعون أيديَهم بيد النبي مبايعةً له ، تعلوهم يدُ الله سبحانه ، يقول تعالى : "إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ"(الفتح١٠) .

فأيُّ عهدٍ أغلظُ وأثقلُ من هذا الذي يكون مع الله ؟!! وأيُّ مبايعةٍ أعظمُ من تلك التي تكون لله ؟!!

ومن ثم فإنني أرى أن في هذا الانتقال من الكسر إلى الضم في (عليهُ) ؛ إشارةً إلى هذا العهد الثقيل وذلك الميثاق الغليظ ، ولاسيما أن هذا الانتقال سيترتب عليه تفخيمُ لفظِ الجلالة ، في مقام تعظيمٍ للعهد وتخويفٍ لمن تهجس نفسه بنقضه .

وفي الإجمال نستطيع أن نقول : إن ما وقع من كسر للمعتمد الصوتي في القرآن ، يسير في مسارين :

الأول : كسر لما اعتمده النص القرآني بالكلية على مدار قراءته من أوله لآخره ، وذلك كما في كسر التوقع الذي تكوّن بشأن لحاق الهاء الكسرة بعد الياء وذلك في (ما أنسانيهُ) و (عليهُ) ، حيث ضمت على غير توقع .

الثاني : كسر لما اعتمدته الآيات المتقاربة أو المتتالية من أصوات كما وقع في فواصل (الانفطار) و (الضحى) .

وسواء أكان الكسر للتوقع من المسار الأول أو الثاني فإن الغاية واحدة هي لفت الانتباه بداءةً إلى شيء يستطيع أن يكشفه القارئ الواعي ؛ لينفذ إلى سرٍّ من أسرار الأسلوبية الصوتية التي هي جزء من الإعجاز الأسلوبي في القرآن الكريم .

ثانيًا – كسر التوقع على مستوى الصيغة :

يُعَدُّ الخروج عن المتوقع في الصيغة من أبرز الخروجات التي تلفت انتباه القارئ الواعي ؛ نظرًا لوضوحها ووقوعها في آيات متقاربة أو متتالية ، في الغالب ، ويتنوع كسر التوقع في الصيغة على صور كثيرة منها الخروج عن التوقع باختلاف المعنى الصرفي للصيغة ، أو بالزيادة فيها ، أو باختلافها في مجال الإفراد وغيره ، أو الزمان وغيره ... وهكذا

(أ) الاختلاف في المعنى الصرفي للصيغة :

وذلك كتوالي صيغتين إحداهما مبنية للمعلوم والأخرى مبنية للمجهول كما في قوله تعالى من سورة الفاتحة في الآية السابعة : "صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ".

فقد وقعت صيغة (أنعم) صيغة فعلية مبنية للمعلوم ، وقابلها صيغة (المغضوب) وهي صيغة اسمية مبنية للمجهول ، وفي ذلك كسرٌ للتوقع ؛ إذ كان من المتوقع أن يكون الكلام :

(صراط الذين أنعمت عليهم غير الذين غضِبت عليهم)

ولكن الإعجاز الصيغي في القرآن أبى هذا التماثل في الصيغة ، وخرج عن التوقع ، الذي مهَّد له وأوحى به التقابل بين المعنيين اللذين تتوسطهما (غير) .

وهذا الكسر للتوقع يحمل وراءه ، كدأب الإعجاز الأسلوبي في القرآن ، مقصدًا فنيًا هو أن التعبير القرآني صرّح أولاً بأن الهداية تُطْلَب من الله (اهدنا الصراط المستقيم) ، وثانيًا نسب إلى الله الإنعام (صراط الذين أنعمت عليهم) ، فصار من غير الأنسبِ نسبةُ الغضب إلى الله "تلطفًا ، ومن ثم بُنِيَتْ صيغةُ الغضب لما لم يسمَّ فاعله . وجيء بصيغة (الإنعام) ماضيةً ؛ ليدل ذلك على ثبوت إنعام الله عليهم وتحققه لهم ، أما صيغة (الغضب) فجيء بها اسمًا ليشمل سائر الأزمان"(٣٢).

(ب) الاختلاف بالزيادة :

قد تختلف الصيغ المتقاربة في آيِ القرآن ، وكان يُتَوَقَّعُ ألا تختلف ، ويكون هذا الاختلاف بزيادة بعض حروف الزيادة ، وذلك كما في قوله تعالى في الآية الأخيرة من سورة البقرة :"لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت"؛ حيث إنه لما كان (الكسب) أعم من الاكتساب ؛ حيث يعني الكسب "ما يتحرّاه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع، وتحصيل حظ ، ككَسْبِ المال ، وقد يستعمل فيما يظنّ الإنسان أنه يجلب منفعة ، ثم استجلب به مضرّة . في حين أن الاكتسابَ لا يقال إلّا فيما استفدته لنفسك"(٣٣) ... أقول لما كان الكسبُ أعمَّ من الاكتساب ، بمعنى أن الكسب يصلح لما

آتاه الإنسان من نفعٍ لنفسه ، وكذلك لما آتاه الإنسان من ضرٍّ لها ، فإنه لم يكن هنالك مانع من تكرار كلمة الكسب فيما كان للنفس وما كان عليها ، بل إن هذا التماثل وارد ومتوقع .

ولكن الأسلوب القرآني كسر هذا التوقع واستخدم صيغة الكسب لما كان للنفس وصيغة الاكتساب لما كان عليها . والسر في ذلك يرجع إلى ضرورة لفت انتباه المتلقي إلى الفرق بين ما يترتب للنفس من كسب النفع ، وما يترتب على النفس من فعل الضر ، وهذا الفرق لن يبرزَ أمام المتلقي إلا إذا كان المعبِّرُ عنهما من الصيغ مختلفًا فما كان للنفس من نفع (كسب) ، وما كان على النفس من ضرٍّ (اكتساب) هذه واحدة ، والأخرى أن في "تكرار الكسب استثقالاً في اللفظ وإغماضًا للمعنى ، أما الاستثقال "فتكرار لفظة (كسب) بغير زيادة ، في نظمٍ قرُبت فيه الثانيةُ من الأولى فسمج ، وأما الإغماض فلأن المراد الإشارة إلى الفطرة التي فطر الله . _ سبحانه وتعالى _ الناسَ عليها فطرةَ الخير . فالإنسان بتلك الفطرة ، السابقة في أصل الخير ، لا يحسن أن يُنْسَبَ إليه إلا كسبُ الحسنات ، وما يعمله من السيئات فيعمله لمخالفته الفطرة ، فكأنه **تكلفَ** من ذلك ما ليس في جِبِلَّتِهِ ، فوجب زيادة تاء للافتعال ، فحصلت بزيادته إماطة العيب عن النظم لمخالفة إحدى اللفظتين أختها ، والإشارة إلى المعنى المراد"[٣٤].

ومن هذا الكيس أيضًا المغايرة في صيغة (الاستطاعة) في قوله تعالى من الآية السابعة والتسعين من سورة الكهف :"فما اسطاعوا أن يظهروهُ وما استطاعوا له نقبا".

حيث ذكرت الصيغة الأولى مغايرةً للمألوف من الاستعمال اللغوي والاستعمال القرآني معًا ؛ حيث وقعت صيغة (استطاع) المألوفة في النص القرآني خمس مرات في حين وردت صيغة (اسطاع) مرة واحدة في هذا الموضع فقط . وفي هذا كسرٌ للتوقع العام الذي حدده النصُّ القرآنيُّ بكلِّيَّتِهِ ثم هناك كسرٌ للتوقع الخاص الذي حدَّدتْ وُجهتَه الآيةُ ؛ فالصيغة الثانية (استطاع) مغايرة للصيغة الأولى (اسطاع) .

فما السرُّ في هذا الكسر للتوقع العام والخاص من خلال ذكر الصيغة (اسطاع) ثم العودة إلى الصيغة (استطاع) ؟!!

إن السرَّ في ذلك يكمن في لفت انتباه المتلقي إلى أن ثمةَ فرقًا في الاستطاعة بين ظهور السدِّ ونقبه ، وأن الصعوبة التي تواجه الساعين لتجاوزه ليست سواء . فظهوره ، عقلاً ، أقل صعوبةً من نقبه(٣٥)، وهو المصنوع من الحديد والنحاس المذاب ، ومن ثم جيء بصيغة (اسطاعوا) المخففة ؛ للتعبير عما توقعوه من خفة أمر ظهوره وسهولته ، مقارنةً باستحالة أمر نقبه التي عُبِّر عنها بصيغةٍ مثقَّلةٍ ؛ وذلك بتوالي التاء المرققة ونظيرها المفخم (الطاء) . وقد عَبَّر النفيُ عن العجز عن الأمرين : الظهور والنقب ، ولكنَّ تخفيف الصيغة مع الظهور ، يشير إلى أن الساعين لتجاوزه قد داعب نفوسَهم الأملُ في ظهوره لاعتقادهم خفته ، ربما لرؤيتهم أعلاه أو لما سوَّلته لهم نفوسُهم من إمكانية الإتيان بصخور يصعدون عليها ، أو لما جاس في نفوسهم من إمكانية تسلق أحد الجبلين اللذين وُضِع السدُّ بينهما ...كلُّ هذه تصورات ربما جالت في خواطرهم لتجاوز السد وعبوره ، أما نقبه فكان من الاستحالة بحيث لم يدُر في خَلَدِهم ، أصلاً ، تصورٌ للعبور من خلاله .

(ج) الاختلاف في الإفراد وفروعه :

وذلك بكسر التوقع في نطاق الإفراد والتثنية والجمع ، كأن تبدأ الآية بصيغة مفردة ثم تتغير هذه الصيغة المفردة إلى صيغة الجمع أو المثنى والعكس ، شريطة أن تكون هذه الصيغ المتغايرة في سياقٍ واحد يَلفتُ النظرَ إلى هذا التغاير .

وذلك كما في قوله تعالى :"الله وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ..."(البقرة) .

وقد تكررت هذه المغايرة في الإفراد والجمع بين (الظلمات والنور) في الكثير من آيات القرآن الكريم(٣٦) حتى صارت سمة أسلوبية متوقعة للنص القرآني ، كلما وردت كلمة (الظلمات) صَحِبَتْها كلمة (النور) .

ولكن توقع هذه السمة الأسلوبية عبر النص القرآني بأسره ، يجب ألا يشغلنا عن ملاحظة كسر التوقع بداخل الآية الواحدة ، حيث لم تتحد الصيغتان إفرادًا أو جمعًا ، فالظلمات المراد بها دروب الضلال والأباطيل التي تتجاذب الإنسانَ في حياته ، والنور المراد به الهداية إلى الحق .

وكأن التعبير القرآني يريد الإشارة إلى أن الهدايةَ طريقُها واحدة وغايتها واحدة ، هي الاهتداء إلى الحق ، وهذه الطريق لا لبسَ فيها ولا غبش ولا تقف أمامها النفس الإنسانية حائرةً مضطربة .

أما دروب الضلال ومسالك الباطل فمتعددة يحيا الإنسان فيها حائرًا مضطربًا ، لا يعرف للحق طريقًا ، تتقاذفه الملذاتُ والمعاصي ، وتتجاذبه الأهواءُ (هوى المال ، هوى المنصب ، هوى الجاه ، هوى الشهرة ،...) ؛ ليجد نفسه ، إن استيقظ له ضمير ، تائهًا في دروب الضلالات والأباطيل ، في الوقت الذي يحيا فيه أهل الحق لطِلبة غايةٍ واحدةٍ فقط هي طريق الله .

إن هذه المغايرة بين الصيغتين تقصد إلى لفت انتباه القارئ بل والإنسانية كلِّها إلى تلك الحقيقة وذلك الفرق بين ما يتلبس به أهلُ الباطل وما يتلبس به أهلُ الحق .

ومن النماذج أيضًا على كسر التوقع في مجال الإفراد وفروعه ، ما جاء في الآيتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة من سورة النساء ، من المغايرة بين الوصف بالخلود جمعًا وإفرادًا بين أهل الجنة وأهل النار . يقول تعالى :"... ومن يطع الله ورسوله يدخله جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ..." ويقول بعدها :"ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارًا خالدًا فيها ..." ، وهذه المغايرة في سياقين متقابلين كما في الآيتين لا شك تلفت انتباه القارئ إلى ما وراء هذه المغايرة غير المتوقعة من مقصديه فنية ، وهي فيما نرى تشير إلى مناسبة سياق كل آية ؛ الأولى تتحدث عن أهل الجنة ، أهل النعيم الذين قدَّموا لأنفسهم في الدنيا بطاعة الله ورسوله ، فكان جزاؤهم الجنة ، وتتمةً في الإنعام عليهم ، أثابهم المولى بأنس الاجتماع معًا في خلود لا موت فيه .

فأهل الجنة ، كما تذكر الأحاديث ، يتآنسون بصحبتهم في الجنة ، حتى إنهم ليسألون ربهم عن إخوانهم الذين كانوا يصلون معهم ويصومون ويعملون فيُخْرِج اللهُ من النار من كان في قلبه مثقالُ دينارٍ أو نصفِ دينار(٣٧). وذلك لأن وحدة المؤمن في النعيم قد تُنغِّص عليه نعمتَه ، فأراد الله تعالى أن يطمئنهم بالجنة والخلود وهم جماعات .

في حين أن التعبير القرآني وصف من يعصي الله ورسوله ويتعدى حدوده بأنه (خالدًا) في النار ، بصيغة الإفراد ، وذلك لكي تجتمع عليه مع خلوده في النار وحشةُ الوحدة والانفراد(٣٨). وأيُّ

عذابٍ أنكى من هذا وأذل ؟!! لذا ختم تعالى الآية بوصف هذا النوع من العذاب بالعذاب المهين أي المذل .

(د) الاختلاف في الزمن وفروعه :

وقع في النص القرآني كسرٌ للمتوقع الزمني كثيرًا ، وذلك بالمغايرة بين صيغ الزمان : الماضي والمضارع واسم الفاعل بوجه خاص[٣٩]، وقد وردت تلك المغايرات بين سابق ولاحق في آية واحدة أو بين آيتين متقاربتين .

فمن المغايرة بين الماضي والمضارع قوله تعالى :"ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق" (الحج ٣١) فصيغة (خرَّ) الماضية تؤْذِن في هذا السياق المتصل بتوقع التعبير عن (الخطف) و (الهُوِىّ) في صيغة ماضية كذلك ؛ حتى تسير الصيغ وَفْقَ التوقُّع الذي يلفتُ إليه اتصالُ السياق بالعطف من جهة ، وماضوية الأحداث المترتبة على الفعل (خرَّ) الماضي من جهة أخرى .

ولكن وقعت المغايرة الزمنية بين الصيغ ، وانكسر توقع المتلقي ؛ فجاءت صيغتا (الخطف) و (الهُوِيّ) مضارعتين ؛ وذلك للفت انتباهه إلى بشاعة صورة ذلك الذي خرَّ بشِرْكِهِ من علياء سماء الإيمان ؛ وذلك باستطالة صورة خطف الطير له وتوزُّعه وتمزُّعه فيما بينها ، و كذلك استطالة صورة هُوِيِّهِ في مكان سحيق ، وكأن الصورتين حاضرتان جاثمتان أمام القارئ لا تكادان تغيبان أو تنتهيان ، فخَرُّ المشرك من علياء الإيمان وقع وانقضى ، لكنَّ عاقبتَه ممتدةٌ في الزمن مستحضرةٌ أمام العيون جاثمةٌ صورتها في الأذهان والنفوس .

ومن عكس ما سبق ، أي من المغايرة بين المضارع والماضي قوله تعالى :"ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر ..." (لقمان ٢٩) .

حيث وقعت صيغة (يولج) المضارعة ثم تكررت معطوفةً ، مما أكد التوقعَ لدى القارئ بأن تقع في ذات السياق صيغة (التسخير) مضارعةً أيضًا ؛ ولكن انكسر التوقع ووقعت صيغة (التسخير) معطوفةً ماضية (سخَّر) ؛ وفي هذا تنبيه إلى اختلاف الحدثين ؛ فولوجُ الليل في النهار والعكس أمرٌ متجددٌ ما بقيت الحياة ، يحدث حينًا بعد حين ، في حين أن تسخيرَ الشمس

والقمر في ذاته ، أمرٌ أزليٌّ كان من الله بقدرة (كن) في الماضي السحيق ، ثم استمر مقتضاه إلى يومنا هذا وسيستمر إلى أن تقوم الساعة .

ومن كسر التوقع بين المضارع واسم الفاعل قوله تعالى :"هُوَ الَّذِي[٤٠]جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ..."(يونس ٦٧) حيث وقعت المغايرة بين الجملتين المعطوفتين المتعلقتين بالجعل (الليل لتسكنوا فيه) و (النهار مبصرًا) من جهة اقتران الليل بالمضارع ، واقتران النهار باسم الفاعل .

ويلفت الزمخشري النظر إلى ما كان متوقعًا من توحُّد المقترنين بالليل والنهار بقوله :"فإن قلت : لم قُرِنَ الليل بالمفعول له والنهار بالحال ؟ وهلاَّ كانا حالين أو مفعولين لهما فيُراعَى **حقُّ المقابلة** ؟ قلت هما متقابلان من حيث المعنى ؛ لأن كل واحد منهما يؤدي مؤدى الآخر ؛ ولأنه لو قيل : لتبصروا فيه ، فاتت الفصاحةُ التي في الإسناد المجازي ، ولو قيل :ساكنًا – والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ، ألا ترى قولهم : ليلٌ ساج وساكن لا ريح فيه – لَمْ تتميز من المجاز "[٤١].

وأرى أن الفصاحة في الإسناد المجازي (النهار مبصرًا) ، التي به وقع كسر التوقع ؛ تكمن في تنزيل النهار ، وهو زمان الإبصار والعمل ، منزلة المُبصِر ، وكأنه يُبْصرُ أعمال العباد بشكلٍ مستمر دائم ويشهد عليها ، وفي هذا إبراز لأهمية وقت النهار الذي تجاوز حدَّ كونه وعاءً لأعمال العباد إلى كونه مبصرًا لها شاهدًا عليها ، هذا فضلاً عن أن الإسناد الاسمي (النهار مبصرًا) يشير إلى ثبوت هذه الحال للنهار ، في حين أن اقتران الليل بالمضارع (تسكنوا) مسندًا إلى المخاطبين يشير إلى تجدد هذا الفعل منهم يومًا بعد يوم ينتقلون به من حالة الحركة والتعب في النهار إلى حالة السكون والراحة في الليل ثم يفارقونها في نهار اليوم التالي للعمل ويعودون إلى سكون الليل تارةً أخرى ... وهكذا دواليك .

ومن العكس وقوع المغايرة بين اسم الفاعل والمضارع ، كما في قوله تعالى حكايةً عن قول المنافقين وبيانًا لحالهم :"وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ **مُسْتَهْزِئُونَ** . **اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ**..."(البقرة١٤، ١٥) ، حيث أسند التعبيرُ القرآنيُّ الاستهزاءَ إلى

المنافقين بصيغة اسم الفاعل ، الدالة على الاستمرار والدوام ، ولم يجر على هذا النسقِ نفسِه في التعبير عن استهزاء الله بهم ، حيث عبر عنه بصيغه المضارع ؛ وهذا يرجع إلى "عظم شأن المؤمنين وعلوِّ منزلتهم ... حيث إن المضارع بدلالته على التجدد والتكرُّر **أبلغ** في النسبة من الاستهزاء المخبر به في قولهم"(٤٢).

أما التعبير عن استهزائهم بالجملة الاسمية بما فيها من معنى الثبوت يدل على أن صفاتِ ، الخيانة والغدر والعداوة للمؤمنين وما تقتضيها من الاستهزاء ، صفاتٌ ثابتةٌ راسخةٌ في نفوس هؤلاء المنافقين ، لا تتبدَّل ، وما يظهرونه من ادعاء الإيمان وصحبة المؤمنين لا يحرك ما سكن في قلوبهم من حقدٍ عليهم وعلى دينهم ؛ لذا فهم يبادرون إلى شياطينهم بطمأنتهم بأنهم مازالوا معهم ولم ينفكوا عن الاستهزاء بالمؤمنين والعداوة القلبية لهم ، وإنْ أظهروا نقيضَ ذلك ، وكأنهم يقولون لشياطينهم : اطمئنوا نحن على عهدنا ثابتون وإنما نحن بهم مستهزئون .

ثالثًا – كسر التوقع على المستوى المعجمي :

وهو أن تأتي مفردة معجمية على غير ما يتوقعه القارئ ، إما لتكرار مفردة واعتياد الأسلوب القرآني لها ثم الخروج عنها واستخدام مفردة معجمية أخرى ، أو لورودها في تركيب من التراكيب المتشابهة لفظيًّا ثم تغيرها في تركيب آخر ، أو لورود مفردتين معجمتين في تركيبٍ واحد أو تركيبين متتاليين متماسَّين ، وكان بالإمكان تماثُلهما بشكلٍ أو بآخر .

وقد مثلنا عند حديثنا عن التكرار الأسلوبي بالمفردة (ضيزى)(٤٣) التي كسرت توقع القارئ الذي كان يتوقع للتعبير عن معنى الاتصاف بالجور ومجاوزة الحق ، المفردة (ظالمة) تلك التي اعتادها النص القرآني عبر آياته وسورة المتعددة عند إرادة التعبير عن معنى الجور .

ومن هذا الكيس أيضًا ولكن في تركيبين متشابهين ورودُ المفردتين (ظلوم وكفار) وصفين للإنسان آخرَ قوله تعالى :

"وإن تعدوا نعمة الله لا تُحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار"(إبراهيم٣٤) .

و ورودُ المفردتين (غفور ورحيم) وصفين لله تعالى آخرَ قوله تعالى :

"وإن تعدوا نعمة الله لا تُحصوها ، إن الله لغفور رحيم"(النحل١٨) .

وهذا الكسر للمتوقع من تماثل المفردات في موضعٍ واحدٍ ، هو موضع الفاصلة ، في تركيبين متماثلين والمحدّث عنه واحد ؛ يمثل قوةً ضاغطةً على المتلقي تستثير عنده التساؤل عن الفرق الموجب لهذا التغاير في المفردات . وينقل الزركشي عن القاضي ناصر الدين بن المنيّر جوابًا عن هذا التساؤل وهو قوله :"إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت (أيها الإنسان) آخذها وأنا (المولى عز وجل) معطيها : فحصل لك عند أخذها وصفان : كونك ظالمًا وكونك كفّارًا ، ولي عند إعطائها وصفان : أني غفور رحيم ، أقابل ظلمك بغفراني وكفرك برحمتي ، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوفير ، ولا أجازي جفاءك إلا بالوفاء"(٤٤). وقد أتى الحديث عن الإنسان ووصفه بما ذكرنا في الآية الأولى (آية إبراهيم) ، والحديث عن الله تعالى ووصفه بما ذكرنا في الآية الثانية (آية النحل) ؛ مناسبةً لسياق الآيتين ؛ فالآية الأولى (آية إبراهيم) أتت بعد قوله تعالى على سبيل الامتنان على عباده :"وآتاكم من كل ما سألتموه" ، أي : ومع ذلك يقابل الإنسان عطاءات الله له بالكفران والظلم . "أما آية النحل فأتت عقب وصف الله تعالى وإثبات ألوهيته وتحقيق صفاته"(٤٥).

ومن كسر التوقع في تركيب واحد قوله تعالى :"مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا ، فلما **أضاءت** ما حولهم ذهب الله **بنورهم** وتركهم في ظلمات لا يبصرون"(البقرة١٧) ؛ حيث أتت المفردة المعجمية (أضاء) وبعدها المفردة (نور) ؛ وكان المتوقع أن يكون التركيب : (فلما أضاءت ما حولهم ذهب الله بضوئهم) .

ولكن وقعت مغايرةٌ بين المفردتين (أضاءت) و (نور) ؛ لأن ثمة عمومًا وخصوصًا بينهما ، فالنور أعم من الضوء ؛ بمعنى أن كلَّ ضوءٍ نورٌ وليس كلُّ نورٍ ضوءًا(٤٦)؛ لأن الضوءَ إنما هو النورُ المفرط ، يقول تعالى : "هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورًا"(يونس٥) .

ولما كان نفيُ العام أبلغَ من نفيِ الأخص(٤٧)، نفى التعبيرُ القرآنيُّ النورَ عنهم ، (ذهب الله بنورهم) ؛ لينتفي عنهم بالضرورة الضوء أيضًا ، أما لو قيل : (ذهب الله بضوئهم) ، لكان المعنى محتملاً ذهاب ضوء خاص عنهم وبقاء نور لهم مما ليس بضوء ، وإنما أراد الله تعالى نفي النور عنهم من أساسه .

إن هذا الكسر يهدف إلى لفت انتباه المتلقي إلى عمق انتقام الله تعالى من أولئك الذين يدّعون الإيمانَ نفاقًا و رياءً واستهزاءً بالمؤمنين ، إن الله تعالى يشبههم وإيمانهم المُدَّعَى بمن استوقد نارًا فأضاء لما حوله (بإيمانه الكاذب) ، ثم أتى الله ليطفئ هذا النور من أساسه (لينزع نبتة الإيمان النورانية من أعماق قلبه) ، ويتركهم في ظلمات الحيرة فلا يرجعون إلى نور (الإيمان) أبدًا ، وهل يمكن للصم البكم العمي أن يدركوا طريقًا للنور ؟!وهل يمكن لمن اقتلع الله نور الإيمان الفطري الكامن في قلوب الناس حتى المنافقين منهم ، والذي به يؤمل للمنافقين و العصاة أن يتوبوا ويئوبوا للإيمان يومًا ما ... هل يمكن لهؤلاء الذين عاقبهم الله أن يدركوا مشكاة الإيمان الحقيقي ثانيةً ؟!!

رابعًا – كسر التوقع على مستوى التركيب :

نظرًا لطول التركيب مقارنةً بالصوت أو الصيغة ، نجد أن كسر التوقع فيه واردٌ من جهاتٍ متعددةٍ ، وملاحظتُه قريبةُ المنال مهما تباعدت التراكيب ؛ لذا تكثر ملاحظة كسر التوقع فيما يطلق عليه المتشابه اللفظي ، عبر النص القرآني ، فتقارب التراكيب ليس هو المؤشر الأبرز الوحيد لملاحظة كسر التوقع في التراكيب كما هو الحال في المفردات أو الصيغ أو الأصوات .

وقد تمثَّل كسر التوقع في التراكيب في أشكالٍ متعددة منها : كسر التوقع في نوع الجمل وشكلها طولاً وقصرًا ، وكسر التوقع بالتقديم والتأخير ، وكسر التوقع بالزيادة والحذف ... وسوف نضرب مجموعة من النماذج لكلِّ شكلٍ من تلكم الأشكال فيما يلي .

(أ) كسر التوقع في نوع الجملة وشكلها :

وذلك بالمغايرة بين الجملتين المتقابلتين أو المتعاطفتين ، من حيث نوع الجملة : اسميةً أو فعليةً ، أو من حيث شكلها : طولاً وقصرًا ، فيما يشكل كسرًا لتوقع القارئ .

ومن النماذج على النوع الأول – أقصد كسر التوقع في نوع الجملة – قوله تعالى :"ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين"(البقرة ٨) ؛ حيث قابل التعبيرُ القرآنيُّ الجملةَ الفعليةَ (آمنا) بالجملةِ الاسميةِ (وما هم بمؤمنين) .

وقد تساءل الزمخشري عن السرِّ في هذا بقوله :"كيف طابق قولُه (وما هم بمؤمنين) قولَهم (آمنا بالله واليوم الآخر) والأول في ذكر شأن الفعل لا الفاعل ، والثاني في ذكر شأن الفاعل لا الفعل ؟[٤٨]"

وأرى أن الزمخشري تضمن تساؤلُه طرفًا من الجواب ؛ حيث قصد التعبيرُ القرآنيُّ بالجملة الاسمية (وما هم بمؤمنين) نفيَ الإيمان عن ذواتهم وأنفسهم ، أصالةً ، بعد ادِّعائهم انتسابَهم له ؛ ففي الجملة الاسمية يتسلط ، في الأساس ، على الفاعل لا الفعل على النقيض من الجملة الفعلية ، كما صرح في تساؤله .

وعلى هذا يكون نفي الإيمان عن هؤلاء الأدعياء يستهدف ذواتهم وأنفسهم ، بمعنى أن الإيمان لم يمسسْهم أو يخامرْهم في يومٍ من الأيام ، لا في ماضٍ ولا في حاضرٍ ولن يمسَّهم في مستقبل أيامهم .

وهذا مصدِّقٌ لطبيعة الجملة الاسمية الدالة على الثبوت . ولو أن التركيبَ سار وفق التوقع لجاء على هذه الصورة : (آمنا بالله واليوم الآخر) (وما آمنوا) ، ومن ثم احتمل المعنى أن يكون نفيُ الإيمان عنهم في الماضي دون إشارةٍ إلى نفي إيمانهم في الحاضر فضلاً عن نفيه في المستقبل .

كما أن التعبير الاسمي "فيه من التوكيد والمبالغة ما ليس في غيره ، وهو إخراج ذواتهم وأنفسهم من أن تكون طائفةً من طوائف المؤمنين ؛ لما عَلِمَ من حالهم المنافية لحال الداخلين في الإيمان ، وإذا شهد عليهم بأنهم في أنفسهم على هذا الصفة ، فقد انطوى تحت الشهادة عليهم بذلك نفيُ ما انتحلوا إثباتَه لأنفسهم على سبيل البتِّ والقطع"[٤٩].

ومن النماذج أيضًا على كسر التوقع في نوع الجملة قوله تعالى حاكيًا عن نوح عليه السلام :"أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم ..."(الأعراف٦٢) . و قوله تعالى بعدها حاكيًا عن هود عليه السلام :"أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين "(الأعراف٦٨) .

والآيتان تدخلان تحت دائرة المتشابه اللفظي ، وهو إحدى مظانِّ ملاحظة القارئ لكسر التوقع ، كما سبق أن قررنا[٥٠]، ومما يقوي من ملاحظة هذه المغايرة قربُ التركيبين من بعضهما .

وربما يحمل طولُ الدعوة من نوح عليه السلام لقومه ، مقارنةً بقصرها من هود عليه السلام لقومه ، تفسيرًا لهذه المغايرة في المكونات الأسلوبية بين التعبيرين ؛ فنوحٌ ، عليه السلام ، دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ، تخللتها بلا شك لحظاتٌ من الضجر و الفتور من قِبَل نوح عليه السلام تُجاه قومِه تدفعه إلى التوقف لتغيير أسلوب الدعوة ثم معاودة الدعوة مرة ثانية بحماس متجدد وشكل مختلف وهكذا .

ودليل ما أصاب نوحًا ، عليه السلام ، من ضجرٍ وفتورٍ ما حكاه القرآن الكريم من شكواه إلى الله تعالى :"رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا . وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا . ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا . ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (نوح ٥-٩) . وقد بلغ ضجر نوحٍ ، عليه السلام ، من قومه مداه بدعائه عليهم : "رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا"(نوح٢٦-٢٧) .

فالآيات السابقة يحكي فيها نوحٌ بين يدي ربه كيف كان مجددًا في دعوته في الليل تارة وفي النهار ، في العلانية وفي الإسرار ، فعاندوا ولم يستجيبوا حتى استبدَّ به ، عليه السلام ، اليأسُ منهم والصدودُ عنهم والدعاءُ عليهم .

إن هذا التجدد والتنوع في الدعوة على هذا المدى الزمني الطويل ليناسب التعبيرَ الفعلي (وأنصح لكم) الذي يدل على التجدد والتنوع المشار إليه في الآيات .

في حين أن دعوة هود ، عليه السلام ، لا تشتمل على هذا التجدد المناسب لطول عهد الدعوة كما في حالة نوح ، عليه السلام ، لذا جاء التعبير الاسمي الدال على ثبوت هود ، عليه السلام ، في دعوته ؛ لعدم وجود ما يدعو إلى تجددها من حين لآخر .

ومن النماذج على المغايرة التركيبية على مستوى شكل التركيب طولاً وقصرًا ، لا على مستوى نوع الجملة ، كما في النموذجين السابقين ، قوله تعالى : حكايةً عن سحرة فرعون :"إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين"(الأعراف١١٥) .

فالمتوقع أن يكون قولُ السحرة (إما أن تلقي وإما أن نلقي) ، ولكنْ كَسَرَ التعبير القرآني هذا المتوقع ، وجاءت الجملة الثانية أطول من الأولى بوسائل متعددة هي إبراز فعل (الكون) ، وتأكيد الضمير المتصل بنظيره المنفصل ، وتعريف الخبر .

وهذا الكسر للتوقع يلفت انتباه المتلقي إلى أن تخيير السحرة لموسى عليه السلام لم يكن تخييرًا حياديًا ، لا يميل أصحابه فيه إلى أحد الخيارين ، لم يكن الأمر كذلك ، بل كانت أنفسُهم تميل وترغب في أن تكون البداءةُ لهم ، وقد أكد الزمخشري هذا بقوله :"وقولهم : (وإما أن نكون نحن الملقين) فيه ما يدلُّ على رغبتهم في أن يُلقوا قبله من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل وتعريف الخبر أو تعريف الخبر وإقحام الفصل"(٥١).

ويقول ابن الأثير في المثل السائر :"فإن أراد السحرةُ الإلقاءَ قبل موسى لم تكن معلومةً عنده ؛ لأنهم لم يصرحوا بما في أنفسهم من ذلك ، لكنهم لما عدلوا عن مقابلة خطابهم موسى بمثله إلى توكيد ما هو لهم بالضميرين اللذين هما :(نكون) و (نحن) دلَّ ذلك على أنهم يريدون التقدم عليه والإلقاء قبله ؛ لأن من شأن مقابلة خطابهم موسى بمثله أن كانوا قالوا : (إما أن تلقي وإما أن نلقي) لتكون الجملتان متقابلتين"(٥٢).

وهذا الكسر للتوقع الذي أشار إليه ابن الأثير وقع أيضًا في قوله تعالى من سورة طه "إما أن تلقي وإما أن نكون نحن أول من ألقى"(طه٦٥) .

وما قيل في آية الأعراف نفسه يقال هنا في آية طه مع اختلافٍ بسيط في وسائل طول الجملة ؛ حيث جاء خبر الكون في آية طه مضافًا إلى موصول وصلته ؛ مما جعل التركيب أكثر طولاً من تركيب آية الأعراف .

(ب) كسر التوقع بالتقديم والتأخير :

ويتحقق هذا الكسر في الآيات المتقاربة ، وفي المتشابه اللفظي على مدار النص القرآني بأكمله . فمن الأول قوله تعالى :"إياك نعبد وإياك نستعين"(الفاتحة ٥) ، بتقديم ضمير المفعول على فعله ، وتكرر هذا النمط الأسلوبي مما يرسخه في ذهن المتلقي ، فإذا ما جاء بعده فعل وضمير مفعول فإن المتوقع أن يسلك نفس النمط الأسلوبي .

وبالفعل جاء بعد التركيبين المؤلفين من (ضمير المفعول فالفعل) ، تركيبٌ ثالثٌ يتألف من ضمير مفعول وفعل ، ولكنْ تنكَّبَ النمطَ الأسلوبيَّ المتوقع ؛ فجاء الفعل أولاً فضمير المفعول "اهدنا ..." (الفاتحة٦) .

ولو جرى التعبير القرآني على النمط الأسلوبي المتوقع لقال (إيانا اهد) .

وهذا الكسر للتوقع في التقديم والتأخير ربما يرجع ، والله أعلم ، إلى أن التركيبين الأولين يقرران اختصاص المخاطب (الله تعالى) بالعبادة والاستعانة(٥٣)، في حين أن الهداية لا يستأثر بها أحد ؛ فيدعو بطلبها فرد أو فصيل دون غيره من الناس ؛ بمعنى أنه لا يجوز أن يدعو أحد بأن يكون مختصًا بالهداية فيقول : اهدني وحدي فقط أو اهدنا نحن دون غيرنا .

ومثل ذلك قوله تعالى :"قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا"(الملك ٢٩) ، حيث تعاطفت جملتان متغايرتان تقديمًا وتأخيرًا ، الأولى (آمنا به) تأخر مركب الجر عن عامله ، والثانية (عليه توكلنا) تقدم مركب الجر على عامله .

وهذه المغايرة تلفت انتباه القارئ إلى الفرق بين الإيمان بالله والتوكل عليه ، وأن ثمةَ مغايرةً في المعنى بينهما ؛ فالإيمان بالله يقتضي الإيمان بغيره كالإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقدره خيره وشره(٥٤)، ومن ثم جاء التعبير دون ما يشير إلى الاختصاص ، أما الجملة الثانية والخارجة عن المتوقع من الأسلوب في الآية فتقدم مركب الجر على الفعل ؛ لأن التوكل لا يكون إلا على الله دون غيره .

ومن كسر التوقع على مدار النص القرآني من خلال المتشابه القرآني ما كان من تقديم لفظ "الضر" على "النفع" في أكثر آيِ القرآن الكريم المشتملة على اللفظتين مثل :

" ... ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ..." (البقرة١٠٢)

" ... قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرًا ولا نفعًا" (المائدة ٧٦) .

"قل لا أملك لنفسي ضرًا ولا نفعًا"(يونس ٤٩) .

"أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا" (طه ٨٩)

"واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا"(الفرقان٣) .

"قل فمن يملك لكم من الله شيئًا إن أراد بكم ضرًا أو أراد بكم نفعًا" (الفتح١١) .

"ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم"(يونس١٨) .

"يدعون من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه" (الحج ١٢).

وهذا الإلحاح في تقديم (الضر) على (النفع) أدى إلى اعتماد هذا الترتيب في الأسلوب القرآني ؛ ولكن كُسِر هذا المعتَمَدُ الأسلوبي وتبِعه كسرُ التوقع في سبع آيات من النص القرآني هي :

الآية ١٨٨ من الأعراف :"قل لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًا".

الآية ١٦ من الرعد :"قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا".

الآية ٤٢ من سبأ :"فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعًا ولا ضرًا".

الآية ٧١ من الأنعام :"ما لا ينفعنا ولا يضرنا".

الآية ١٠٦ من يونس :"ما لا ينفعك ولا يضرك".

الآية ٦٦ من الأنبياء :"ما لا ينفعكم شيئًا ولا يضركم".

الآية ٥٥ من الفرقان :"ما لا ينفعهم ولا يضرهم".

وقد وضَّح الزركشي المقصدية من هذه المغايرة في الآيات السبع بقوله :"وحيث تقدم النفع على الضر فلتقدم ما يتضمن النفع ...

أما في الأعراف فلتقدم قوله :"من يهد الله فهو المهتدي ، ومن يضلل ..." الأعراف ١٧٨. فقدم الهداية على الضلال ...

أما في الرعد فلتقدم الطوع في قوله : "طوعًا أو كرهًا"(الرعد ١١) .

أما في سبأ فلتقدم البسط في قوله :"يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر" (سبأ ٣٦) .

أَمَّا الْأَنعامُ فَفِيهَا: "لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يؤخذ منها"، ثُمَّ وَصَلَهُ بِقَوْلِهِ: "قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا"(الأنعام٧٠–٧١) .

وَفِي يُونُسَ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ:"ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ" ثُمَّ قَالَ:"وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا ينفعك ولايضرك"(يونس١٠٦) .

وَفِي الْأَنْبِيَاءِ تَقَدَّمَ قَوْلُ الْكُفَّارِ لِإِبْرَاهِيمَ فِي الْمُجَادَلَةِ: "لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شيئا ولا يضركم"(الأنبياء٦٥–٦٦) .

وتَقَدَّمَ في :"أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ"(الفرقان٤٥) نِعَمًا جَمَّةً فِي الْآيَاتِ ثُمَّ قَالَ: "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يضرهم"(الفرقان٥٥) .

فَتَأَمَّلْ هَذِهِ الْمَوَاضِعَ الْمُطَّرِدَةَ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ اتِّسَاقًا مِنَ الْعُقُودِ"(٥٥).

(ج) كسر التوقع بالزيادة :

وذلك كأن تأتي جملتان متشابهتان تمامًا ، مع زيادة في الجملة الثانية ، وذلك كما في قوله تعالى حكاية عن الخضر ، عليه السلام ، لموسى صلى الله عليه وسلم :"ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرًا (الكهف ٧٢) .

وذلك عند إنكار موسى عليه السلام لخرق الخضر السفينة وقوله له :"أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئًا إمرًا" (الكهف ٧١) .

وحين كرر الخضر ، عليه السلام ، ما رآه موسى ، صلوات الله وسلامة عليه ، أمرًا منكرًا وهو قتله الغلام ، قال له :"أقتلت نفسًا زكيَّةً بغير نفس لقد جئت شيئًا نكرًا"(الكهف٤٠) ، حينها بادره الخضر عليه السلام مرَّةً ثانيَّةً بقوله :"ألم أقل **لك** إنك لن تستطيع معي صبرًا".

وكان المتوقع لدى الملتقي أن تتطابق الجملتان المتقابلتان المحكيتان عن نفس المتكلم ونفس المخاطب في الموقف نفسه ، ولكن لم يتحقق هذا التوقع ، وانكسر انكسارًا يلحظه كلُّ قارئٍ واعٍ للنص القرآني ؛ وذلك بزيادة الضمير المجرور العائد على المخاطب (موسى عليه السلام) .

والسرُّ في هذا المغايرة لفتُ انتباه المتلقي إلى أن الخضر بدأ يضيق ذرعًا بتكرار مخالفة موسى ، عليه السلام ، لما كان بينهما من اتفاق مسبَّق :"فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيءٍ حتى أحدث لك منه ذكرًا" (الكهف ٧٠) ، ومن ثم ظهر هذا الضمير المجرور (لك) في المرة الثانية ؛ توكيدًا يناسب تكرار موسى للمخالفة بسؤال الخضر واستنكاره فعلته ، وكأنه يقول له : لقد قلت لك أنت ولم أقل لغيرك :"إنك لن تستطيع معي صبرًا ".

يقول صاحب ملاك التأويل :"للسائل أن يسأل عن الفرق الموجب لزيادة لك في هذا القول الثاني ؟ والجواب ... أن الخضر قابل ذلك (الإنكار الثاني من موسى) بتأكيد الكلام المتقدم فقال :"ألم أقل لك" ، فالضمير المجرور بيانٌ جيء به تأكيدًا ؛ ليقابل بالكلام ما وقع جوابًا له من قوله موسى ، عليه السلام ؛ زيادة للتناسب"(٥٦).

رابعًا _ كسر التوقع على مستوى الدلالة :

إذا كانت ملاحظة كسر التوقع في الصوت والصيغة والمفردة والتركيب تعمد في الأساس إلى ملاحظة المتلقي للتغاير الشكلي بداخل النص بين لاحق وسابق أو عارض وأصيل في المستويات اللغوية السابقة ، فإن ملاحظة كسر التوقع على المستوى الدلالي تعمد إلى ملاحظة المتلقي لدلالات المفردات في النص وتحديد حقولها الدلالية وما تستدعيه من مفردات أُخر تناسب تلك الحقول ، بدايةً ، ثم خروج هذه المفردات عن مقتضى انتمائها لحقلٍ دلاليٍّ معينٍ ، بتعالقها مع مفردات لا تناسب حقلها الدلالي ، بحيث يمكننا تعريف كسر التوقع على المستوى الدلالي بأنه تعالق مفردتين من حقلين دلاليين مختلفين .

وهذا الخروجُ لمفردة عن مقتضى الحقل الدلالي الذي هي منه ، وتعالقُها بمفردات لا تناسب حقلها الدلالي ، يُحدِثُ صدمةً دلالية للمتلقي ناشئةً عن المفارقة الدلالية بين المفردات المتعالقة .

فمثلاً وقعت كلمة (الظل) في النص القرآني متوافقةً مع دلالتها المعجمية التي هي الفيءُ الحاصلُ من الحاجز بينك وبين الشمس ... وفي الحديث : "السلطان ظلُّ الله في الأرض ؛ لأنه يدفع الأذى عن الناس كما يدفع الظلُّ أذى حر الشمس"(٥٧).

وهذه الدلالة المعجمية جيء بها في النص القرآني على سبيل امتنان الله على عباده بالنعم :"ألم تر إلى ربك كيف مدَّ الظل ..."(الفرقان ٤٥) .

والظل من نعيم أهل الجنة :"وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلع منضود وظلٍّ ممدود"(الواقعة ٢٧-٣٠) .

"لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً "(النساء ٥٧) .

"إن المتقين في ظلال وعيون" (المرسلات ٤١) .

والظل موطن الراحة والاسترواح ، "فسقى لهما ثم تولى إلى الظل" (القصص ٢٤) .

إذن فدلالة الظل في النص القرآني تحمل "معاني الاسترواح واللطافة"(٥٨)والنعيم ، وعلى هذا فإن دخولَ هذه الكلمة في سياقٍ دلاليٍّ مغايرٍ ، وتعالقَها بكلماتٍ غيرِ مناسبةٍ لحقلها الدلالي يمثل كسرًا لتوقع المتلقي ، يصدمه ويدهشه ثم يدعوه للوقوف أمامه متأملاً في السرِّ وراء هذا الكسر للتوقع .

وقد حدث هذا في قوله تعالى :"وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم ، وظلٍّ من يحموم ، لا بارد ولا كريم"(الواقعة ٤١-٤٤) .

وهذا هو الموضع الوحيد الذي استخدم فيه الظل مع اليحموم ، وهو كذلك الموضع الوحيد الذي وردت فيه كلمة (يحموم) .

إن دلالة (الظل) المتعالقة مع ألفاظ توحي بالراحة والاسترواح والنعيم في عموم الأسلوب القرآني ، نراها في الآيات السابقة قد تعالقت مع ألفاظ : (يحموم : وهو الدخان الشديد السواد) و (لابارد) و (لاكريم) وعطفت على (السموم : أشد الرياح حرًّا يكاد حرُّها يدخلُ في مسام الأديم) و (الحميم : ماء متناه في الحرارة والغليان يعطونه إذا اشتد عطشهم فيزيد ببلائهم) ، وهما مما يجازى به (أهل الشمال) .

وينشد الأسلوب القرآني من هذا التعالق لفت أنظار المتلقين إلى السخرية من أصحاب الشمال و تعميق الحسرة في قلوبهم ؛ إذ إن الإتيان بكلمة الظل يستدعي في خيال المخاطب نسيم الهواء

العليل والراحة والاسترخاء. وهذه المعاني تبعث في المخاطب ارتياحًا ودعةً وسكينة ، فتداعبه الأمنيات أن يكون من المنعمين بهذا الظل ، فإذا به وهو في خياله وأمنياته تصعقه المغايرةُ الدلالية ، وينكسر توقعُه إزاء الظل الذي رسمته في مخيلته اللغةُ وأسلوبُ النص القرآني ، فإذا بالظل هو ظلٌ من دخان أسود ، في صحبة رياحٍ شديدة الحر ، وماءٍ متناهٍ في الغليان . وهذه المفارقة الدلالية تفتكُ بأمنياته وتنسفُ خياله وتقودُه إلى حقيقةٍ واقعة ، تتجاوزُ المعنى الحقيقي والقرآني للظل ، وتعمِّقُ إحساسَه بالحسرة على ما فاته من نعيم الظل الذي كان سينعم به لولا كونه من أصحاب الشمال .

وهذه المفارقات في تعالق المفردات بغير ما هو معتاد لها في الأسلوب القرآني تهدف في كثير منها إلى التهكم من أهل الباطل ، وذلك كما في قوله تعالى : "فسنيسره للعسرى"(الليل١٠) .

فالتيسير من المعلوم أنه لا يكون إلا في الخير وما يقود إليه ، ولا يكون مع العسر الذي هو من حقل مضاد لحقل اليسر ؛ومن ثم فإن السخرية والتهكم من أولئك الذين بخلوا واستغنوا وكذبوا بالحسنى واضح في الآية .

ومثل ذلك أيضًا كلمة (النُّزُل) وتعني ما يُقَدَّم للنازل تكرمةً له قبل حضور الضيافة[٥٩] . ومن ثم فإن هذه الكلمة تدور في مجال الكرم والتكريم وفضائل المعاملات .

وقد وردت كلمة (النزل) في النص القرآني في فلك هذا المعنى الأصلي خمس مرات.

يقول تعالى :"تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله" (آل عمران ١٩٨) .

ويقول عزَّ من قائل :"إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً" (الكهف١٠٧) .

"فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون"(السجدة ١٩) .

"أذلك خيرٌ نزلاً أم شجرةُ الزقوم "(الصافات٦٢) .

"ولكم فيها ما تدّعون نزلاً من غفور رحيم"(فصلت٣٢) .

وحدث الخروج عن توقع المتلقي ، الموافق لما اعتُمِدَ أسلوبياً في النص ولما عُرِف لغويًّا في أصل اللغة ، في ثلاث آيات هي :

"وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ . فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ"(الواقعة ٩٢-٩٤) .

"إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا" (الكهف١٠٢) .

"فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ . هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ"(٥٥-٥٦) .

حيث وقعت كلمة (النُّزُل) في الآيات الثلاث في سياق ما يقدَّمُ للنازل ذلَّةً وإهانةً وعذابًا ، لا تكرمةً وتعظيمًا وإحساناً ...

وهذا الكسر للتوقع على مستوى النص ، وعلى مستوى اللغة ، جيء به لفتًا لانتباه المتلقين إلى هوان أهل الجحيم على الله ، الذين طالما سخروا من أهل الإيمان ، فأخبر الله تعالى عن دخولهم النار وعذابهم في الدار الآخرة بأسلوب تهكميٍّ ساخر ، يجعلهم أضحوكة في فم الدنيا مادام هناك قرآن يُقرأ إلى يوم الدين ؛ ليشفيَ صدور قوم مؤمنين ، ويسرِّيَ عنهم ما يلاقونه من سخرية أهل الباطل ، فإن كانوا يسخرون من أهل الإيمان فالله يدفع عنهم بالسخرية منهم والتهكم عليهم في كتابه الخالد .

خاتمة البحث

كسر التوقع اللغوي في المكونات الأسلوبية للنص القرآني بحثٌ يفيد من التزاوج الحاصل بين اللسانيات والأسلوبية في العصر الحديث ، ونحن إذ نقرر هذه الحقيقة ، لا ننكر أن هذا التزاوج كان قديمًا قِدَم الدراسات اللغوية التراثية ، ولا سيَّما تلك التي اهتمت بالجانب التطبيقي الذي يجعل من النص اللغوي مادةً محوريةً للقواعد النظرية في اللغة العربية .

لا ننكر قدم هذا التزاوج الذي بدأت بواكيره في كتاب سيبويه بإشاراته عن منشئ النص وأثره في اختيار الأسلوب تارة والمخاطب (المتلقي) وأثره في تشكُّل الأسلوب تارةً أخرى ، والمقام ومناسبة الأساليب له على صعيدٍ آخر ... وهكذا مما يُعَدُّ دمجًا بين اللغة (أو اللسانيات) والدرس الأسلوبي بمعناه الحديث .

كما ظهر هذا الدمج بشكلٍ أوضح عند لغويين لاحقين على سيبويه كابن جني(ت٣٩٢) وعبد القاهر (ت٤٧١) والزمخشري (ت٥٣٨) وغيرهم .

ولكن لا نستطيع أن نُقرَّ ظهور نظرية متكاملة تبين وتوضح هذا التزاوج بين اللسانيات والأسلوبية قديمًا ، وربما يرجع ذلك إلى عدم الاهتمام بالتنظير لهذا الجانب ؛ لأن الانشغال الأكبر كان موجهًا لمعالجة مظاهر هذا التزاوج في صورته التطبيقية ، من خلال مصنفاتهم في تفسير القرآن وبيان معانيه وشروح الشعر المتعددة .

على أية حال كانت النظرية التزاوجيَّة بين اللسانيات والأسلوب منسوبةً في الأساس للسانيين المحدثين ، وفي مقدمتهم : (شارل بالي) و (جاكبسون) و (تودورف) و (أولمان) وغيرهم .

ويُعَدُّ هذا البحث مظهرًا تطبيقيًا تبرز من خلاله آصرة الصلة القوية بين الدرسين : اللساني والأسلوبي . ونستطيع أن نجمل ما توصل إليه البحث فيما يلي :

١. كسر التوقع مصطلح تناول مفهومه بشكل متعمق أحد اللسانيين الفرنسيين وهو (ميكائيل ريفاتير) ، ويقصد به الخروج عمَّا ألفه أو لاحظه المتلقي في سياق النص نفسه بسبب مخالفة مكرور أو مغايرة متقاربين لغويين (لفظيًا أو موقعيًا) في النص . ومن ثم فإن ذلك الخروج يُمثل مفاجأة وصدمة تهدف إلى لفت انتباه المتلقي إلى أن ثمة مقصديةً فنيةً وراء هذا الإجراء الأسلوبي . وبذلك يصير كسر التوقع منبهًا أسلوبيًا للمتلقي .

٢. يرى البحث أنه على الرغم من تكاملية اتجاهات تعريف الأسلوب ، إلا أن الاتجاه الذي يعرف الأسلوب تعريفًا ينتصر للمتلقي ويعده حجر الزاوية في تشكيل الأسلوب ، هو الاتجاه الأهم والأبرز ؛ لأن المتلقي هو غاية أي إجراءٍ أسلوبي ، وهو كذلك وسيلة الكشف عنه ، وفي النهاية يمثل شعوره به وجودًا له ، والعكس صحيح ، ومن ثم فإن إغفال المتلقي في الدرس الأسلوبي هو بمنزلة إغفال للمرآة التي يتجسد فيها الإجراء الأسلوبي ومقصديته وبصمة صاحبه وروحه فيه .

٣. اجتهد البحث في أن يكشف عن الوسائل التي يمكن بها تصيد مواقع الإجراءات الأسلوبية المتعلقة بكسر التوقع في النص القرآني ، والتي يصح أن تكون في أي نصٍّ لغوي . فكشف البحث إجمالاً عن وسيلة التكرار الأسلوبي ، وهو **تكرار نمط لغوي معين** (صوتي ، صيغي ، لفظي معجمي ، تركيبي ، دلالي) ، ثم مخالفة ذلك المكرور أسلوبيًّا ، وبيَّن أن هذه الوسيلة هي أبرز وأهم وسائل الكشف عن كسر التوقع .

ثم يليه وقوع التقارب : إما على **مستوى اللفظ** فيما يُعْرَف بالمتشابه اللفظي ، أو على **مستوى الموقع** بداخل النص ، فيبرز كسر التوقع في التراكيب المتقاربة أو المتتالية المتماسَّة أو بداخل التركيب الواحد، وأهمية هذا التقارب هو لفت انتباه المتلقي إلى الإجراء الأسلوبي ؛ حيث إن عدم التقارب في اللفظ (التشابه اللفظي) ، أو عدم التقارب في الموقع بداخل النص ، يُضْعِفُ من ملاحظة المتلقي للمغايرة بين النموذجين : الأول وصورته المغايرة له ؛ لذا فإنه كلما كان النموذجين المتغايرين أقرب (لفظيًّا أو موقعيًّا)كان شعور المتلقي بالتغاير وكسر التوقع أكبر ، وكلما كان المتغايران أبعد ، في الشبه اللفظي أو في الموقع من النص ، كان شعور المتلقي به أضعف ، ومن ثم لا يؤتي كسرُ التوقع ثمرتَه من حيث إثارة المتلقي ومفاجأته .

٤. كسر التوقع لم يقتصر على مستوًى لغويٍّ محدد ،وإنما شَمِل كلَّ المستويات اللغوية بدءًا من الصوت مرورًا بالصيغة والمفردة والتركيب وانتهاءٍ بالدلالة ، وقد تضمن البحث العديد من النماذج التي تثبت هذا .

٥. مع قناعتنا بأن وراءَ كلِّ إجراء أسلوبي ، فيه كسر للتوقع اللغوي ، مقصديَّةً فنيَّة ينبغي على القارئ كشف النقاب عنها ، إلا أننا نرى في الوقت نفسه أن هذه المقصدية الفنية قد تتعدد بتعدد قَرَأَةِ النص ؛ وهذا هو الذي دفع بعض علماء النص إلى وصف التفسيرات التي يقدمها المتلقون بالذاتية والانطباعية .

ولا أرى في هذا الوصف بأسًا أو نقيصةً ما دامت تلكم التفسيرات مبنيَّةً على معطيات موضوعية تقدمها لغة النص ، ولا يمكن أن يختلف عليها اثنان . ثم تكون هذه التفسيرات بعد ذلك تعبيرًا

عن رؤية المتلقي لموضوع النص وموقفه الشخصي منه . "فإذا كان موقف القارئ موقفًا شخصيًّا ، فمن المؤكد أن السبب الذي ولَّد هذا الموقف إنما هو سبب موضوعي وثابت"[٦٠].

وعلى هذا فإننا نتفق مع ما ذكره أستاذنا الدكتور تمام حسان من أن النص بالنسبة للقارئ بمثابة منجم يستخرج منه ما يشاء من السبائك ... وللقارئ كامل الحق في ذلك[٦١].

ومن هنا تأتي أهمية القارئ الذي ينبغي أن يبذل مجهودًا لا يقل عن مجهود منشئ النص ، بوجه عام ، في تحليل النص واستنطاق مقاصده الفنية .

أما عن النص القرآني على وجه الخصوص ، فإن القارئ ينبغي أن يبذل مجهودًا كبيرًا لمحاولة تلمُّسِ معانيه ووجوه إعجازه التي لا تنفد .

٦. بناءً على ما ذكرناه في النقطة السابقة ، فإننا نقرر أن ما قدمناه في البحث ، من تفسيرات للإجراءات الأسلوبية المتعلقة بكسر التوقع ، ما هي إلا اجتهادات من المفسرين ومن الباحث ، لا يمكن أن يدَّعي أحدٌ أنها التفسير الأخير الذي لا تفسير بعده ، أو أنه التفسير القاطع ببيان مراد الله – فالله أعلم بمراده – ولكن ما يمكن أن نقوله : إننا ، وكذلك المفسرون من قبلنا ، قد استندنا إلى معطيات لغوية موضوعية ، ثم حاولنا ربطها بالمعنى الفني المعبر عن السياق .

وأخيرًا فإن كسر التوقع في النص القرآني يُعَدُّ دليلاً وبرهانًا بين يدَيْ كلِّ من يحاول إثبات عُلويَّةِ الأسلوب القرآني وإعجازه ، إنه الإعجاز الذي عجزت دونه ألسن الفصحاء عبر العصور ليظل القرآن الكريم آيةً من آيات الإعجاز اللغوي الخالد .

هوامش البحث

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص٣٥ .

(٢) الأسلوب والأسلوبية للمسدي ص ٢٣ .

(٣) المصدر السابق ص٢٤ وهامش رقم ٨ بالصفحة نفسها .

(٤) اختلفت المصطلحات المعبرة عن هذه الثنائية بعد (دوسيسير) عند اللسانيين ، فاللغة والكلام عند دوسيسير ، هما اللغة والخطاب عند جوستاف غيوم ، وهما النظام والنص عند يلمسليف ، وهما الرسالة والنمط عند جاكبسون ، وهما القدرة والأداء عند تشومسكي .

(٥) انظر الأسلوب د. سعد مصلوح ص٢٣ بتصرف .

(٦) انظر معايير تحليل الأسلوب لريفاتير ص٥ ، ٢١ بتصرف ، وانظر كذلك الأسلوب د. سعد مصلوح ص٤٢ .

(٧) انظر : بناء لغة الشعر جون كوين ص١٥ .

(٨) الأسلوب والأسلوبية ص٦٣ .

(٩) انظر : الأسلوب د. سعد مصلوح ص٤٤ بتصرف كبير .

(١٠) المصدر السابق ص٤٥،٤٤ بتصرف .

(١١) معايير تحليل الأسلوب ص٢١ بتصرف .

(١٢) المصدر السابق ص٥٦ .

(١٣) درة التنزيل للخطيب الإسكافي ص٢٥٠ .

(١٤) انظر البحث ص٤ .

(١٥) معايير تحليل الأسلوب ص١٠.

(١٦) انظر البرهان للزركشي ٤٤/١ بتصرف .

(١٧) انظر الكشاف ٤٢٣/٤ ، وقد ذكر أنهم كانوا يقولون : إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله ، وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى .

(١٨) البرهان ٩٣/١ .

(١٩) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢٥٦/١ ، والبرهان في ترتيب سور القرآن لابن الزبير الغرناطي ص ١٨٢، ١٨٣ .

(٢٠) بالطبع يجوز قراءة سور من القرآن من غير ترتيب المصحف ، إذا أريد بالقراءة الثواب والتبرك و الهداية ، وهذه أمور لا دخل للترتيب فيها . أما ما نحن بصدده فهو القراءة الأسلوبية التي تكشف عن المسلك الأسلوبي للنص القرآني بوصفه نصًّا لغويًّا يعتلي قمة الفصاحة والبيان .

(٢١) انظر البحر المحيط لأبي حيان ٤٧٨/٥ ، ٤٧٩ ، حيث يقدم أبو حيان تفسيرًا لهذه الفروق بين الآيتين .

(٢٢) انظر حديثًا مفصلاً عن هاتين الآيتين وتفسيرًا للفروق بينهما في هذا البحث ص ٢٤ .

(٢٣) ذهب العلماء إلى أن الغلام الحليم هو إسماعيل عليه السلام وأن الغلام العليم هو إسحق عليه السلام ، ونرى أن وصف إسماعيل عليه السلام بالحلم للفت الانتباه إلى أن صفة الحلم هي الصفة الأبرز لإسماعيل عليه السلام في النص القرآني ؛ فهو الذبيح الذي أسلم نفسه للذبح على يد أبيه دون ضجر أو جزع ، وهو المعين أباه على بناء البيت العتيق ، وهو الرسول الذي قال عنه ربُّ العزة "...وكان رسولاً نبيًّا "(مريم٥٤) ، وكونه رسولاً يقتضي بالضرورة مخالطة الناس على اختلاف مشاربهم والصبر عليهم والحلم بهم .

أما إسحق عليه السلام فلم يُذكر في النص القرآني إلا بصفة (النبي) دون (الرسول) ؛ "ووهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا"(مريم٤٩) ، "وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين"(الصافات١١٢) ، والنبوة تقتضي العلم في الأساس .

مع ملاحظة أن اتصاف نبي بصفة لا ينفي عنه سائر أوصاف الكمال البشرية الأخرى ، وإنما يوصف النبي بما هو أبرز من خصاله من خلال الصورة التي يقدمها له النص القرآني .

(٢٤) انظر لسان العرب مادة (بشر) .

(٢٥) لا يعنينا في هذا البحث مخالفة أصل اللغة فيما يُسَمى (العدول) ، وإنما يعنينا مخالفة الأسلوب النصي نفسه على حد ما أشرنا في البحث عن (ريفاتير) من أن النص قادر على خلق نماذجه الأسلوبية المعتمدة التي يُعَدُّ الخروج عليها خروجًا عن التوقع .

(٢٦) انظر سر صناعة الإعراب لابن جني ٧٨/١ .

(٢٧) سر صناعة الإعراب ٢٠٣/١ .

(٢٨) انظر سر صناعة الإعراب ٣ / ٣٥٩ ، ٤٢٧ ، والتمهيد في علم التجويد لابن الجزري ٩٢/١ ، ٩٣ .

(٢٩) انظر خصائص الحروف العربية للأستاذ حسن عباس ص٦٠ .
(٣٠) انظر الكتاب ٤/١٩٥ ، وشرح كتاب سيبويه للسيرافي ١٦/١٦٥ .
(٣١) انظر الكشاف ٢/ ٧٣٢ ، ٧٣٣ بتصرف .
(٣٢) انظر الدر المصون ١/ ٧٥ ، ٧٦ .
(٣٣) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ١/٧٠٩ .
(٣٤) بديع القرآن لابن أبي إصبع ص٣٠٥ .
(٣٥) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير ٢/ ٣٢٤ .
(٣٦) انظر : المائدة ١٦ ، الأنعام ١ ،٢٢ ، الرعد١٦ ، إبراهيم ١، ٥ ، الأحزاب ٤٣ ، فاطر ٢٠ ، الحديد ٩ ، الطلاق ١١ .
(٣٧) جزء من حديث طويل في صحيح البخاري تحت رقم (٧٤٣٩) ٩/١٢٩ ، وانظر الحديث نفسه تحت رقم (٣٠٢) ١/ ١٦٧ من صحيح مسلم .
(٣٨) يحكي الله تعالى في سورة الشعراء عن أهل النار قولهم : "فما لنا من شافعين ولا صديق حميم" (الآيتان١٠٠ ، ١٠١) .
(٣٩) يطلق الكوفيون على اسم الفاعل مصطلح الفعل الدائم ، لما فيه من دلالة على الزمن المستمر . انظر معاني القرآن للفراء ١/ ٣٣ ، وكذلك رسالة في اسم الفاعل المراد به الاستمرار في جميع الأزمنة ، لأحمد بن قاسم العبادي (ت٩٩٢) ص ٧١ .
(٤٠) وفي غافر٦١ :"الله الذي ... " الآية .
(٤١) الكشاف ٤/ ٦٦ .
(٤٢) البحر المحيط ١/ ١١٥ .
(٤٣) انظر البحث ص٧ .
(٤٤) البرهان ١/ ٧٤ .
(٤٥) المصدر السابق .
(٤٦) انظر المثل السائر٢/ ١٦٦ .
(٤٧) حاشية ابن المنيّر على هامش الكشاف للزمخشري٢/٨٩ (مطبعة الاستقامة دون تاريخ) .
(٤٨) الكشاف ١/ ٦٥ .
(٤٩) المصدر السابق .
(٥٠) انظر البحث ص١٠ .
(٥١) الكشاف ٢/ ١٣١ .
(٥٢) المثل السائر ٢/ ١٥١، ١٥٢ .
(٥٣) الإتقان للسيوطي ٣/ ١٥٦ .
(٥٤) التفسير الكبير ٣٠/ ٧٦ .
(٥٥) البرهان ١/ ٩٧ .
(٥٦) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير ٢/ ٣٢٢ .
(٥٧) لسان العرب مادة (ظلل) ص٢٧٥٥.
(٥٨) انظر البرهان ٢/ ١٤٦
(٥٩) المصدر السابق ٢/١٤٤ .
(٦٠) علم الأسلوب د. صلاح فضل ص١٨٧ .
(٦١) البيان في روائع القرآن د/ تمام حسان ٢/١٢٤ .

مراجع البحث

- الإتقان للسيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، سنة ١٩٩٧.
- الأسلوب (دراسة لغوية إحصائية) د. سعد مصلوح ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٩٢م .
- الأسلوب والأسلوبية ، د. عبد السلام المسدي ، الدار العربية للكتاب ، ط٣ ، دون تاريخ .
- إعجاز القرآن للباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب ت٤٠٤ هـ) ، تحقيق أحمد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٤ م .
- البحر المحيط في التفسير ، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي ت٧٤٥هـ ، تحقيق صدقي محمد جميل ، دار الفكر – بيروت ، ط١٤٢٠ هـ .
- بديع القرآن المجيد لابن أبي الإصبع ت ٦٥٤ هـ ، تحقيق حفني محمد شرف ، نهضة مصر ، دون تاريخ .
- البرهان في ترتيب سور القرآن لابن الزبير الغرناطي ، تحقبق محمد شعباني ، ط وزارة الأوقاف المغربية ، ١٤١٠هـ ، ١٩٩٠ م .
- البرهان في علوم القرآن للزركشي (بدر الدين بن محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي ت٧٩٤هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، صيدا ، ٢٠١٢ م .
- بناء لغة الشعر جون كوين ، ترجمة د. أحمد درويش ، مكتبة الزهراء ، ١٩٨٥م .
- البيان في روائع القرآن د. تمام حسان ، الهيئة العامة للكتاب ، سنة ٢٠٠٢ .
- التفسير الكبير لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي ت ٦٠٦هـ ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط٣ ، ١٤٢٠ هـ .
- حاشية ابن المنيّر على هامش الكشاف للزمخشري ، مطبعة الاستقامة ، دون تاريخ .
- خصائص الحروف العربية ، الأستاذ/ حسن عباس ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، ١٩٩٨م .
- الدر المصون للسمين الحلبي (أبي العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي ت٧٥٦هـ) ، تحقيق د. أحمد محمد الخراط ، دار القلم ، دمشق .
- درة التنزيل وغرة التأويل لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي ت١٤٢٠هـ ، دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى آيدين ، جامعة أم القرى ، معهد البحوث العلمية مكة المكرمة ، ط١ ، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .
- رسالة في اسم الفاعل المراد به الاستمرار في جميع الأزمنة ، لأحمد بن قاسم الصباغ العبادي ثم المصري الشافعي الأزهري، شهاب الدين ت ٩٩٢هـ ، تحقيق الدكتور محمد حسن عواد ، دار الفرقان – عمان ، ط١ ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- سر صناعة الإعراب لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي ت ٣٩٢هـ ، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ، ط١ ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .
- شرح كتاب سيبويه للسيرافي ، تحقيق د. أحمد جمال الدين أحمد ، دار الكتب المصرية ، ط١ ، ٢٠١١م .
- صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي ، محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ، ط١، ١٤٢٢هـ .
- صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ت٢٦١هـ ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، دون تاريخ .

- علم الأسلوب (مبادؤه وإجراءاته) د. صلاح فضل ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، ط١ ، ١٩٨٥ م .
- الكتاب لسيبويه ، عمرو بن عثمان بن قنبر ، أبو بشر ، الملقب سيبويه ت ١٨٠هـ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ط٣ ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله ت ٥٣٨هـ ، دار الكتاب العربي – بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٧ هـ .
- لسان العرب لابن منظور ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٩٩م
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد ت ٦٣٧هـ ، تحقيق أحمد الحوفي ، بدوي طبانة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة .
- معاني القرآن للفراء ، أبي زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء ت ٢٠٧هـ ، تحقيق أحمد يوسف النجاتي ، محمد علي النجار ، عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر ، ط١ .
- معايير تحليل الأسلوب لريفاتير ، ترجمة حميد لحمداني ، منشورات دراسات سال ، ط١ ، ١٩٩٣م .
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ت٥٠٢هـ) تحقيق: صفوان عدنان الداودي ، دار القلم ، الدار الشامية ، دمشق بيروت .
- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير ، لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر ت ٧٠٨هـ ، وضع حواشيه عبد الغني محمد علي الفاسي ، دار الكتب العلمية، بيروت .